

الأزهر

أَبْرِيَاءُ وَيَتَهَمُونَ

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومي
الجزء الثاني

مكتبة المصنفين الإسلاميين
الطبعة ١٤٢٦ هـ

صفحات من التاريخ

أبرياء ويَتهمون

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد رجب اليومى

الجزء الثانى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طعبل الخزاعي شاعر نائر ذو رأي



نأسف كثيرا حين نجد بعض الشخصيات الأدبية والسياسية قد وضعت في غير موضعها الصحيح. فنقل عنها من الأخبار والحوادث، ما فسر على غير وجهه، ثم انطبع هذا التفسير الزائف في عقول الباحثين، فهم يتناقلونه في كتبهم المتتابة كأنه حق صريح لا وجه لنقضه وتفنيده. وقد يكون الشاعر الثائر دعبل الخزاعي أحد هؤلاء الذين ظهرت صورهم التاريخية في لوحات مشوهة، فليس بها من الملامح والسمات ما يوقف القارئ على الحقيقة الصادقة، وقد أجمع الإخباريون من الرواة والأدباء من النقد على ترديد ما اشتهر عن الرجل من أنباء، دون أن يخضعوا أخباره المتواترة إلى نظر صائب يستشف الخوالج الكامنة، ويفسر المتناقضات المضطربة، وإنما قصارى الاخباريين من الرواة أن يجمعوا على تأييد ما حكاه أبو الفرج الأصبهاني حين قال عن دعبل «هو دعبل بن علي بن رزين ويكنى أبا علي شاعر متقدم مطبوع، هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبير أحد» ثم يسهب صاحب الأغاني في ذكر أنباء مختلفة يتأملها من زاوية واحدة دون أن يعمق نظرتة الناقدة، فيما تحمل من دلائل وإيحاءات، وإذا كان أبو الفرج راوية

إخباريا يسطر ما يسمع دون أن يتسع له المجال في أكثر أخباره للترجيح والتحليل، فإن أبا العلاء المعري الناقد الألعى ينهج نهجه فيما تحدث به عن الشاعر، وكنا نأمل أن نجد عند الفيلسوف المتعمق ما افتقدناه في أسف وألم عند الأصبهاني، ولكننا وجدنا أبو العلاء يجرى معه في مضمار واحد، حين يتحدث عن دعبل في رده على ابن القارح فيقول:

«وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي، لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب». وما أرتاب في أن دعبلا كان على رأى الحكمى وطبقته، والزندقة فيهم فاشية، ومن ديارهم ناشبة» وإذن فقد أرى المعري على أبى الفرج فجعل الرجل زنديقا متهما في دينه.. ودعبل أمام هذه الاتهامات القاسية في حاجة ماسة إلى من يجلو الضباب عن سيرته ليراه القارىء في وضعه الصحيح.

ويمكننا أن نلخص الاتهامات التي وجهها الكاتبون إلى دعبل في ثلاث نقائص تشينه وترديه، فهو أولاً هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد، أحسن إليه أم لم يحسن، وهو ثانياً منافق كذاب يظهر التشيع طعماً في الكسب، ويخفى غير ما يعلن، وهو ثالثاً كما قال أبو الفرج مغامر فاتك عاش عيشة مريبة متهمة فعاشر اللصوص والأشرار، وخالط الشطار

والعيارين ممن جمعوا العصابات وشنوا الغارات، وهى الثالثة الأثافى كما يقولون، ولا بد لنا أن نكشف اللثام عن سيرة الرجل، لنرى أكانت هذه الاتهامات الثلاثة حقاً لا شبهة فيه أم أنها استنتاج مجحف، أخطأه الصواب واحتاج إلى من يعتمد إليه بالتصحيح.

حقاً لقد كان الرجل هجاء قاسى اللسان. ولكن أى هجاء كان يقوله دعبل؟ أهو الهجاء الشخصى الذى يتجه إلى الأفراد فيسلبهم محاسنهم بالباطل الزائف طمعاً فى مالهم أو عقاباً على شحهم، أم هو هجاء صاحب رأى الذى ينظر فيجد الأمر قد وسد إلى غير أصحابه، ويرى المهيمنين من الرؤساء قد أساءوا سيرتهم فى الناس فهم ظلمة فساق، يقولون مالا يعملون، وفيهم تصادر الأموال بغير حق، وتزهق الأرواح دون موجب، وطوائف المتملقين من الشعراء والكتاب يطيلون مدائحهم الكاذبة، ويختلقون لهم من المكارم المزورة مالم يهملوا به فضلاً عن أن يفعلوه. لقد كان دعبل، يرجو من بنى العباس ألا يكونوا أشراً ظلمة كبنى أمية، فهم أقرب بنى أمية، واستئصال باطلهم إلا طعماً أكيدا فى حق يمحى الباطل، وعدل يسحق الظلم، ولكن المسرح السياسى لعهدده قد اختلف ممثلوه فقط، فراح فريق وجاء فريق.. أما الرواية

نفسها فمأساة حزينة تصور أبشع مناظر الإرهاب والتنكيل،
والشاعر كحجرٍ ثائر لا يرضى أن يسير في ركاب الوصوليين
من الشعراء، والهتافين من الأدعياء، ولكنه يجهر بعداوته
لذوى الظلم من خلفاء ووزراء، ويصرح بخيبة أمله في
العباسيين إذ يقول في أسف ومرارة:

أرى أمية معذورين إن غدروا

ولا أرى لبنى العباس من عذر

قتل وأسر وتحريق ومنهبة

فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

فهجاء دعبل عنصر هام من عناصر الشعر السياسي، وهو
بما تضمنه من نقد وتشهير يصور أحزاب المعارضة، ويهدف
هدفها السياسي في الكشف عن مثالب الحاكمين، وإعلان ما
يقترفون من منكرات، ونحن نعد الهجاء رذيلة دنيئة إذا كان
صاحبه ذا مأرب شخصي كالخطيئة فهو يهجو الأثرياء إذا
منعوه، ويمدح الأدياء إن أعطوه. أما إن كان الهجاء تصويرا
لنقائص أليمة يتركبها الرؤساء فهو ناقوس مجلجل يرن في
الآذان الغافلة، ويفتح في العيون النائمة فتري ما يرتكب
حولها من أهوال، وليت شعري أيهما أعظم في ميزان
الرجولة، شاعر كالبحتري يمدح الظلمة من الرؤساء فيحيل

ظلامهم الدامس إلى صباح وضىء مجانباً باب الحق وطريق
الإنصاف، حتى يملأ يده من دنائيرهم الخادعة، وضياعهم
الواسعة، ثم لا يمنعه تكسبه المهين أن يهجو في الغد من
مدحه بالأمس زلفى لرئيس جديد يحمل الضغينة على سابقه
فإذا دالت دولة هذا الجديد وحل سواه طفق البحترى يكيل
السباب لمن تقرب إليه في عنفوان مجده ويربى المديح لمن
جافاه وعاداه؟

أيهما أعظم فى ميزان الرجولة هذا المتكسب الخانع أم ذاك
الأبى الثائر الذى يوجه هجومه القارص إلى من يتعبدون الناس
بطغيانهم الأثيم؟ إن دعبلاً الشجاع لم يكتف بالهجاء
الشعرى بل أبى عليه إباؤه أن يقف عند القول فاندفع إلى
العمل مع الثائرين، وأعلن الحرب على الأمين ورأى فى
سلوكه الشخصى، وضعفه الخلقى ما لا يرشحه لإمارة المؤمنين
عن جدارة واستحقاق، وكأنى به وقد استشرى إلى عهد زاهر
تصفو سماؤه فى خلافة المأمون فألب الجموع وقاد العصائب.
ثم نظر متلذذا فوجد الخليفة الجديد يصب سياطه الظالمة على
أناس أبرياء متخذاً من فتنة خلق القرآن سلاحاً يطعن به
الآمين، ففى كل يوم نفوس تزهرق، وسياط تحرق وجسوم
تقيد وتسجن! أين الفجر الوضىء الذى استشرى له الشاعر

وسعى إلى بزوغه سعى المقاتل الجرىء؟ لقد تبددت أوهامه
الخلوة، واستشعر ندما مغيظا يدفعه إلى أن يهدد المأمون
فيقول:

أيسومنى المأمون خطة عاجز
أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
رفعوا محلك بعد طول خموله

واستنقذك من الحضيض الأوهد
وكان المأمون على ضيقة بقوارص الشاعر يصفح عنه
ويفسح له فى مجلسه حتى روى الرواة أنه كان أول داخل من
الشعراء عليه وآخر خارج من عنده، ولو بلغ هذه المرتبة شاعر
وصولى متكسب لأرسل مدائح العريضة فى الخليفة، وجعل
أدبه مطية تسير به إلى المال والضياع، ولكن دعبلأبى
يستشعر غصة أليمة حين يجد آماله تخيب فى إنصاف
المأمون، فيضحى غير مكترث بمكانته لديه، ويرسل إليه
أهاجيه القارصة، هاربا بنفسه فى مخارم الجبال وشعاب
الفلوات، متحملا مرارة التشرد وشظف الصحراء، وقلق
الاعتراب، وحسبه أن أراح نفسه، فعبر عن مشاعره الساخطة

دون أن يغره سلطان المال أو يجتذبه مجلس الخلافة، ولتأت الأيام إليه بما تدخر من الأهوال فلن يهتم بعد بعقاب أو إرهاب.. إن رجلا يحتقر رغائب البشر في سبيل مبدئه لجدير أن يأخذ اعتباره الصحيح دون تحيف وانتقاص.

ثم ماذا.. لقد ظل المنافقون من الرواة يعيبون دعبلا بأهاجية السياسية ويعدونها ثمرة مريرة لفساد الطوية وخبث الضمير، وظل الشاعر وفيما لمبدئه الصريح، فقد مات المأمون وجاء المعتصم ليسلك سبيله في الإرهاب والتعذيب ولم يكن له من الحلم والصفح ما يسع زلات الشاعر وأهاجيه كما وسعها صدر المأمون فأخذ يطارده ويبعث خلفه الأرصاد وينصب الفخاخ لاغتياله، والشاعر الحذر ينتقل من كهف إلى كهف ومن قرية إلى قرية ثم لا ينقطع عن التنديد بدوى الأمر، فقد طغى الأتراك أرهب طغيان، وأعطى المعتصم قياد الدولة لوصيف وأشناس وغيرهما من فسدة الترك فطمى السيل وعج الفساد، ودعبل يسجل ذلك فيقول في استفظاع:

وقالوا إمام لم يكن ذا هداية

فليس له دين وليس له رب

وما كانت الأنبياء تأتي بمثله

يملك يوما أو تدين له العرب

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس أمرهم

وصيف وأشناس وقد عظم الكرب

وكأن القدر قد هادن الشاعر الثأرفمات المعتصم دون أن
يتمكن منه، واندفع المتملقون من أصحاب القصائد يرثون
الخليفة الراحل، ويستقبلون العاهل الجديد بمدائحهم الطنانة،
وقد بذل كل شاعر في اختلاق الفضائل، وتزييف الحقائق،
وزرشة البيان، ولكن جميع ما سجلوه قد صادف أذنا صماء
من الناس، فقبع في أوراق الدواوين مجفوا لاتهش له نفس،
ولا يلهج به لسان. أما الكثرة الكاثرة من الناس فقد اندفعوا
يرددون قول دعبل في تقدير وإعجاب:

الحمد لله لاصبر ولا جلد

ولا عزاء إذا أهل البلى رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد

وأخر قام لم يفرح له أحد

ويالهما من بيتين صادقين أظهرتا الحقيقة الأصيلة دون
خداع!! فأحس كل عربي أنهما يعبران عن ذات نفسه،
فرواهما السامعون، وأصبحا مضرب المثل في كل مناسبة
تتاح والمؤسف حقا أن هذا الشعر الرائع الذي تردد على

الأفواه سرا في المجالس، تهاداه السامرون خلسة في الأندية، لم يجد من جامعي الشعر من يحرص على رصده وتسجيله، إذ أن كل راوية أديب قد خاف على نفسه أن يسجل في طيات كتبه بعض ما قيل في ذوى الأمر، فيعرض مستقبله لخطر محقق، وبذلك ضاع ديوان الرجل المنكود فلم يحفل بروايته باحث، أو يجمع شوارده جامع، وما وجد لدينا من ذلك قليل من كثير ظل يتردد على الأفواه حقبا طويلة حتى أمن المؤرخون على أنفسهم بعد انقراض من قيل في هجائهم، فسجلوه وحفظوه، وقد كان الشاعر يقول ما مؤداه: «لقد مضى على ستون عاما ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه الشعر» (الأغانى) ومعنى ذلك أن ما قاله كثير حفي، وقد يكون الرجل مبالغاً في دعواه ولكن ذلك يدل على أنه نظم قدراً حافلاً لا يقل عما نظمه معاصروه كأبى تمام والبحترى وابن الرومى وسواهم من فطاحل الشعراء ولكن مسلكه العدائى قد جعل الأدباء يتحاشون شعره فطوى الزمن منه أضعاف أضعاف ما ترك، واشتهر عنه أنه هجاء خبيث اللسان، وما هجاؤه إلا لون سياسى لا يصح أن يندرج تحت القدح المذموم، إذ أنه هجاء المبادئ لا الأشخاص، ويخيل إلينا أن أبواب الشعر العربى فى حاجة ماسة إلى تحديد دقيق.

بحيث لا تفرج دائرة الهجاء حتى تسع كل ذم، صائباً كان أو غير صائب، متى تم هذا التحديد المرتقب، فإننا نعتبر قصائد دعبل مشاركة سياسية تصور وجهات نظر كثيرة، ترجم عنها الشاعر فصدق وأجاد، ومن ثم فقد كان ثائراً ذا رسالة وهدف!!

وقل من الشعراء -على عهده- من حمل الراية، وحارب الطغاة.

نتقل بعد ذلك إلى المأخذ الثاني، وقد حصره أبو العلاء في زندقة الشاعر مع جنوحه إلى التشيع رغبة في المكسب المادي، أولاً بأننا لم نجد فيما لدينا من أخبار دعبل ما يشير إلى زندقته وإلحاده، وقد اهتم أعداؤه بتعداد مثالبه، وتشريح نقائصه، فلو عرف عنه شيء مما أشار إليه المعري لما نكص هؤلاء عن تسجيله وإيراد شواهد، وتعداد أسبابه ونتائجه! وواضح أن تشيعه يمنع زندقته! لأن الذي يؤمن بأحقية آل محمد في الخلافة، لا بد مؤمن بمحمد ورثه، وما رأينا في تاريخ الإلحاد زنديقا يتشيع، حتى نجروا على رمي دعبل بالزندقة! وأعجب ما قرأناه للمعري دعواه أن تشيع دعبل للمكسب لا للعقيدة إذ أن الشاعر لو أراد الكسب لاتبه بمذائحه إلى أصحاب المال والسلطان من الخلفاء والوزراء ولكنه هاجم

هؤلاء جميعا، واتجه بأمداحه إلى فئة مستضعفة لا تملك القليل
أو الكثير !! فكيف يكون تشيعه إذن للكسب والثناء !

لقد كان الشاعر العباسي من طبقة دعبل يمدح الرشيد أو
المأمون أو المعتصم فيغنم عن القصيدة الواحدة ضيعة واسعة، وقد
يأخذ من الجوارى والقصور والبدر ما ينقله من طبقة الرعاع إلى
مستوى العلية من المترفين، ولكننا لم نجد شاعرا علويا غنم في
العصر العباسي من تشيعه ما يكفل له الراحة والرغد، ومن أين
يأتيه الثراء، وأولياؤه فقراء تنفحهم هبات الخلافة بما لا يتسع لغير
الضرورة من المتاع، وتجحف بهم كثيرا فلا يجدون ما يبتغون
فكيف يتجه مريد الكسب المادى إلى مدائحهم السياسية، وهو
يرى الأموال تتدفق في قصر الخلافة فتغرق بطوفانها من يريد.

حقا إن رأى المعري في تشيع دعبل الكسبي لا يجد شبهة
ضئيلة توحى بتأييده، بل تقوم كل الدلائل على توعيته
وتفنيده، وقد قرأنا في تاريخ الشاعر أن الإمام موسى الرضا
أعطاه هبة مرضية عن قصيدته الثائية في أهل البيت، إذ بكى
موسى حين سمعها أحر البكاء.

ولكن سلطان الإمام الرضا لم يدم غير أمد محدود، فقد
رضى عنه المأمون برهة يسيرة فأغرقه بنعمه، ثم عوجلت
حياته فجأة على نحو مجهول دون أن ينعم على أحد غير ما

جاء به مرة واحدة على دعبل . فهل كان الشاعر حين نظم القصيدة يعلم -مقدما- أنه سيكافأ عليها ، حتى يقال إنه سعى بتشيعه إلى الكسب . إن الرواة ليذكرون أن دعبلا قد ألح على موسى الرضا أن يأخذ خلعة من ثوبه لتكون معه في قبره . وهذا الإلحاح المتهالك يدل على إخلاص الشاعر ، ويكشف عن صدق تشيعه بما لا يحتمل أدنى التباس ، وقد كان الشاعر جريئا في قصيدته ، فلم يكتف كال المعتاد بالتوجه لأهل البيت ، فيذكر مصارع شهدائهم ومصابب أوليائهم ، بل دعا إلى إمامتهم وتمنى أن يجيء اليوم الذي ينقرض فيه حكم بنى العباس ليرجع الأمر إلى ذويه ، أى جرأة تلك التي لا تمتنع الشاعر من الاحتياط لنفسه بل تدفعه لأن يقول :

مدارس آيات خلّت من تلاوة

ومنزل وحى مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخيف من منى

وبالركن والتعريف والجمرات

قفا نسأل الدار التي شط أهلها

متى عهدا بالصوم والصلوات

وأين الألى شطت بهم غربة النوى

أفانين فى الآفاق مفترقات

ملامك فى آل النبى فإِنَّهم
 أحيأى ما عاشوا وأهل ثقاتى
 بنفسى أنتم من كهول وفتية
 لفك عناء أو لـحـمـل ديات
 أحب قصى الرحم من أجل حبكم
 وأهجر فيكم أسرتى وبناتى
 لقد حفت الأيام حولى بشرها
 وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى
 ألم تر أنى من ثلاثين حجة
 أروح وأغدو دائم الحسرات
 أرى فيئهم فى غيرهم منقسما
 وأيديهم من فيئهم صفرات
 إلى أن يقول :
 فلولاً الذى أرجوه فى اليوم أو غد
 تقطع قلبى إثرهم حسرات
 خروج إمام لا محالة خارج
 يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل
 ويجزى على النعماء والنقمات
 فإن قرب الرحمن من تلك مدتى
 وآخر من عمرى لطول حياتى
 شفيت ولم أترك لنفسى وزية
 ورويت منهم مفصلى وقناتى
 قصارى منهم أن أموت بغصة
 تردد بين الصدر والصهوات
 كانى بالأضلاع قد ضاق رحبها
 لما ضمنت من شدة الزفرات
 إن التشيع الذى يدفع صاحبه إلى الحتوف فيظل تائها
 شريدا فى الفلوات وتحف الأيام بشرها من حوله كما يقول
 فلا يرجو الأمن إلا بعد الوفاة.. هذا التشيع القلق المرهق
 لا يؤدى إلى كسب وجاه، بل إلى اضطهاد وإزعاج.. على أن
 الشاعر كان يأنف من الاتصال بالخلفاء، وقد حاول إبراهيم
 ابن المدبر أن يصلح أمره مع الخلافة فاعتذر الشاعر وامتنع،
 وسلك سبيلا جلبت عليه الشرور حتى مات قتيلا فى قرية
 من قرى فارس فأراح واستراح.

ونخرج من جميع ذلك بنتيجة واضحة: هي أن دعوى أبى العلاء وأمثاله فى كذب تشيعه لا تجد ما يمدّها بالتأييد، وإذا عرفنا أن الشاعر قد نشأ بالكوفة وهى على عهدہ وكر التشيع ومجمع آل على، وفيها من الخطباء والرواة والفقهاء والشعراء من يضرمون الأحاسيس بالوقود فتشرب نائرة هائجة تتجه بهواها العنيف إلى آل البيت من أسرة على فإننا بعد استقصاء تاريخ الشاعر نرى أن مسلكه الشيعة فى حياته نتيجة طبيعية لمنشئه فى بيئة نائرة، ولو لم يتشيع تشيعه المشتهر لوجب علينا أن نسأل فى حيرة. لم لم تثمر البيئة ثمرها الطبيعى فى نفس هذا الألعى المتفتح ولكنه بتاريخه المضطرب كان منطقيا مع ظروفه وملابساته فكفانا مؤونة السؤال.

وننتقل - بعد هذين - إلى الاتهام الثالث وهو اشتراك دعبل مع الأشرار وقطاع الطريق ومخالطة الشطار والعيارين: وهو اتهام شائن إن فهم مدلول اللصوصية وقطع الطريق كما نفهمه فى العصر الحديث، ولكننا نجد هؤلاء الشطار فى العصر العباسى لم يكونوا جميعاً من ذوى السفك التخريبى، والسطو الاغتيالى لجمع المال وتكديس الذخائر، فأكثر هؤلاء كما ذكر المؤرخون قوم رأوا آراء فى السياسة والمال تخالف ما

عليه النظام العباسى من تحكم فى الرقاب، واصطفاء للأفراد،
 وتسليط للقللة القليلة من أبناء الأعيان على الكثرة الكاثرة
 من همل الرعية وسوام الناس، وقد جهروا بآرائهم العادلة
 فأخذهم الإرهاب من كل مكان، وضائق عليهم الأرض بما
 رحبت ففروا إلى الجبال والفلوات ينشدون الأمن ويلتمسون
 بعض الهدوء، وكان سلوكهم مع المارة عجباً أى عجب! فإذا
 وجدوا فقيراً لاتفى أمواله بغير حاجته تركوه وشأنه، وإذا
 وجدوا غنياً يجمع البدر الطائلة ويغرق فى ذهبه ورياشه
 جردوه من أكثر نفائسه وتركوا له ما يعين على السفر
 والحياة! وقوم هذا صنيعهم الاشتراكى من الناس لايمكن أن
 يقاسوا بسفلة الأشرار، وطغمة اللصوص وإذا كان لابد من
 الاعتراض على مسلكهم الإرهابى فهو اعتراض المشفق
 الرحيم لامؤاخذة القاهر اللجوج إنك لتقرأ نوادر هؤلاء فتجد
 من الطرائف ما يبهرك ويروعك، فهذا ابن الأثير فى ج ٩ ص
 ١١٥ والقاضى التنوخى فى الفرغ بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٨
 يرويان أن أعمال هؤلاء كانت موجهة إلى أصحاب المال
 والأغنياء ممن يكسدون ثرواتهم ويخزنون أموالهم ويتركون
 العامة فى عوز وفاقة لذلك لم يتعرضوا لأصحاب البضائع
 القليلة، ولم يعرضوا لامرأة ولا لمن يستسلم إليهم!!

وكان لهؤلاء فلسفة فى التعليل والاستنتاج لاتخلو من طرافة وإبداع، فقد ذكر التوخى فى -الفرج بعد الشدة- بعض ملحمهم النادرة فكان مما قال على لسان بعض الأدباء: «كنت مسافرا ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردي، فقطع الطريق، وكان بزي الأمراء، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يروى الشعر ويفهم النحو، فطمعت فيه، وعملت قصيدة مدحته بها، فقال: لست أعلم أن هذا من شعرك، ولكن أعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه وأنشدنى بيتاً، فصغت ثلاثة أبيات إجازة له فقال لى: أى شىء أخذ منك لأرده عليك، فذكرت ما أخذ منى فرده إلى، ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيسا فيه ألف درهم فوهبه لى، فجزيته خيراً، ورددته إليه، فقال لم لاتأخذه؟

فوريت فى كلامى فقال: أحب أن تصدقنى الحديث، فقلت: وأنا آمن؟ فقال: نعم. قلت: لأنك لاتملكه وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة ظلما، فكيف يحل أخذه؟ فقال لى: أما قرأت ما ذكر الجاحظ فى كتاب اللصوص عن بعضهم؟ قال: إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص فقراء إليها، فإن أخذوا أموالهم

كان ذلك مباحا ، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة .

هذه طرفة من طرفهم الغريبة نذكرها لا لنؤيد بها مسلك هؤلاء الثائرين ، ولكن لنقف على وجهة نظرهم إلى أصحاب الأموال ، فهم أصحاب فلسفة مريضة دون نزاع وإنما صورتهم التفكير المخطيء ما يجوز في صورة ما لايجوز فهم مجتهدون قد أخطأوا طريق الاجتهاد ولو نظرنا إليهم من هذه الزاوية لأعفيناهم من حرج كثير ، ولك أن تقرأ معي القاضى التنوخي على لسان بعض هؤلاء : فى كتاب الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٨ :

« قال اللص : لعن الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا ، فإنه أسقط أرزاقنا فاحتجنا إلى هذا الفعل ، وليس فيما نفع ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان . أنت تعلم أن (ابن شيراز) فى بغداد يصادر أموال الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر الكثير فلا يخرج من حبسه ، وهو يهتدى إلى شىء غير الصدقة ، وكذلك يفعل (البريدى) فى واسط والبصرة والديلم ، ويتجاوز ذلك إلى الحرم والأولاد فاحسبونا مثل هؤلاء .»

وبعد ، فإذا كان دعبل قد هاجم الخلفاء والوزراء وضافت عليه الحواجز فتنقل هاربا فى القرى والأصقاع النازحة ،

فماذا كان يصنع لاجتلاب الرزق؟ أيصبر حتى يأكله الجوع أم ينضم إلى فريق من أمثاله ممن أرهقهم جور السلطان، وراعهم اغتصاب الأموال، وانتهاك الحرم، فاعتصموا بالكهوف والغارم، واقتدوا بصاحب الأمر في السطو والاعتصاب! مع فارق بين الاثنين فأكثر هؤلاء اللصوص يأثمون ويندمون، ويقول قائلهم: «لعن الله السلطان الذي أحوجنا إلى هذا» أما رجال الدولة فيأثمون ويفتخرون ويتعدون الأموال إلى المحرمات من النساء!! ونحن لانبرر خطأ بخطأ ولكننا نزن الشئ بالشئ ولا ننظر إليهما مفترقين لا يلتقيان.

على أن الطريف أن دعبلا نفسه وقع ذات مرة في أيدي زملائه من الشطار فجردوه من ماله ومتاعه، ثم عرفوا شخصيته، وكانوا يروون أدبه، ويعتزون به فأكرموا مثواه، وخلعوا عليه أكثر ما في حوزتهم من المتاع، وردوه إلى مأمنه غير خائف، والمقام لا يتسع لبسط هذه الحادثة الطريفة، ولكننا نشير إليها فقط، لنعلم أن ذوى المآرب الباطشة لا يسلم بعضهم من بعض، فهم في صراع دائم بين الأصدقاء والأعداء، ويالها من حياة قاسية تكتنفها الأهوال.

لقد كان الشعر منطقيا مع نفسه حين هاجم خلفاء لا يقيمون شريعة الله بين الناس، وحين انضم هاربا إلى

عصابات تؤيد مذهبه، وترى ما ارتآه، فإذا اشتط في مسلكه الإرهابي فهو شطط المضطر الذي ضاقت حول عنقه حلقة الموت، فأفلت منها إلى حلقة أخرى تمرض ولا تميت وإذا كانت هذه العصابات ذات آراء واضحة في سياسة الحكم، ولها أهداف معلومة في توزيع الثروة وإصلاح الحاكم، فبينها وبين عصابات السطو الفوضى بون أى بون بحيث لا يجوز لك أن نسلك الطائفتين معا في نطاق.

لقد كان دعبل رجلاً كالرجال له ارتفاع الإنسان وهبوطه، وقد حاولنا أن نفسر أسباب الهبوط بما لا ينقص مميزات الارتفاع فنصف الشاعر من قوم أعدوا عليه كل نقیصة تشين ولم يحاولوا أن يعترفوا ببطولته وإبائه وذلك إجحاف شائن لا يقل عن إجحاف من أعرضوا عن رواية شعره فتلاشى بددا في آفاق الزمان، وخسر الأدب العربى بفقده ثروة ثمينة لها وزنها الثقيل.

ونحن نعلم أن دعبلا تتلمذ على مسلم بن الوليد، وصادقة وآخاه، ولكنه لم ينهج نهجه في مذهبه الشعرى، فمسلم صانع ماهر يحتفل بأسلوبه احتفالا تلمح وراءه أثر الذهن اللاقط المذهب، والروية المتتدة المميزة، ولكن تلميذه شاعر يستسلم لطبعه فلا يكد الذهن في تنسيق لفظى، أو تصوير

مخترع، وإنما تنثال عاطفته انشبالاً، فتدفعه إلى ضرب من القول يشتعل بحرارة الصدق ويتسم بطابع الإخلاص، فإذا قرأته فإنما تقرأ وحياً يتحدر في انفعال، وهو بصدقه المؤثر يرجح كثيراً مما ينظمه المنقحون الحوليون، فهو يصل إلى النفس دون حجاب، ويستمر الإعجاب به أمداً طويلاً لا يتيسر لشعر الصنعة في أكثر الأحيان. وقد تعرض البحتري الشاعر إلى الموازنة بين التلميذ وأستاذه فقال في مذهب الأغاني ج ٧ ص ٢٦٧: «دعبل بن علي أشعر من مسلم بن الوليد لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذهبهم» ولا شك أن البحتري يقصد بمذهب شعراء العرب ما اطرده عليه الجاهلي والأموي من إجراء القول على طبيعته دون التفات إلى تنسيق لفظي أو محسن صناعي أو تثقيف ذهني، وقد تكون الصور الأدبية قليلة في شعر دعبل وكثيرة في شعر مسلم ولكن الاحتفال بالصورة وتلمس السبل إليها عند الأستاذ يجعلها في كثير من أوضاعها ذهنية محضة، تنبئ عن كد واعتماد، وأصدق منها المعنى الحقيقي الذي يكشف عن خلعة مستترة، أو يعبر عن عاطفة ملموسة تعبيراً تجدد فيه حرارة الصدق، وقوة الانفعال، وليس معنى ذلك أن دعبل الخزاعي لم يحفل

بالصورة الخيالية فى شعره ، وإنما معناه أنه لا يعتمد عليها تعمدًا
مكلفًا كما يفعل مسلم وأبو تمام والبحترى فى بعض ما
يقولون ابل يرسم ما يجول بنفسه كما يجىء عفو الخاطر ، لا
كما تنضجه الروية والإمعان ، فإذا كثرت الصور الشعرية فى
بعض قصائده فهى كثرة طبيعية غير متعمدة تدل على تأثيره
الأنفعالى الشائر ولا تشى بكد ذهنى يؤلف بين النظائر
والأشباه كما جاء فى قوله معاتبا مسلم بن الوليد أستاذة
وصديقه :

أيا مخلصنا عتيدي مودة
هوانا وقلباننا جميعا معا معا
فصيرتنى بعد انتكاثك متهما
لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله
بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا
نخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحينى ليس لى فيك مطمع
تمزقت حتى لم أجذك مرقعا

فهبك يميني استأكلت فقطعتها

وجشمت قلبي صبره فتشجعا

ولعلنا نستطيع أن نحكم في ثقة بأن دعبلا شاعر الطبع
الخالص، والصدق الفطري الصريح، في عهد أخذ يبتعد قليلا
عن الفطرة السمحة، ويتعلق بأهداب الصنعة والتنسيق، لقد
طال عمر الشاعر حتى جاوز المائة فعاش قرنا طويلة الأمد
ضجر النفس قلق الراحة لا يستقر به مكان، وجعل يحمل
كفنه معه أينما سار ثقة بما يستهدفه من أخطار، فلقي حتفه
قتيلا منبوذا، فلا أقل من أن نذكره الآن فننصفه بعض الشيء
من فهموه على غير حقيقته، وحسبي أن أكون وجهت
الأنظار إلى دراسته نفسيا وتاريخيا، لنصل فيه إلى رأى
وطيد.

الافشين بطل باسل مضطهد

فى التاريخ الإسلامى مئات من الأبرياء الأفذاذ قاموا
بمجهود ضخم فى مجتمعهم المعاصر، ثم عصفت بهم الفتن
فقبولوا بغير ما يستحقون، وسجل المؤرخون وقائعهم كما
شاعت على ألسنة خصومهم، ولو أنهم تأملوا الحوادث كما
يمليها المنطق العادل لأنصفوا البرىء وأعرضوا عن
الأراجيف !!

ولكن الحظ يلعب دوره فى كتابة التاريخ، فترى لهذا
القائد ما ليس لسواه من التحليل والتعليل، وقد يكونان فى
كفة واحدة.

غير أن الله شاء لهذا القائد ما لم يشأ لذاك !!

ومن هؤلاء القواد البسلاء «حيدر بن كاوس» الملقب
بالأفشين، فقد ضمه المعتصم إلى جنده حين شاهد بطولته
القاهرة، وصحبه فى حروبه المتلاحقة، فأبدى تضحية خارقة،
وبسالة عجيبة، وكانت مصر العزيزة أول مضمار حربى تلاًأ
فيه صيته البعيد، فقد أرسله المعتصم إليها لإنهاء فتن دامية
ونزاع طائل بين عرب القيسية واليمانية، فأظهر مقدرة
وكفاية، إذ أطفأ الثورة وأعاد الأمن والهدوء، وكر راجعاً إلى
المعتصم يحمل إليه أنباء الطمأنينة والاستقرار.

عظم الأفشين فى عين خليفته، فأخذ يرمى به إلى المهالك

في حروب طاحنة، وفتن مشتعلة، وقد أسدى إلى الإسلام يداً خالدة حين قضى على الحزبية قضاءً مبيداً، وانتصر في معركة تتصارع فيها العقائد والشهوات، ويتجاذب في ميدانها العقل والهوى تجاذباً كان له أبعد الأثر في حياة الإنسانية، وأنصر الذكريات في صفحات الإسلام. لقد ظهر في عهد المأمون طائفة من المحسوس يدينون بالتناسخ ويستبيحون المحرمات فيتزوجون ذوات المحارم، ويندفعون في ميدان اللذة اندفاعاً يحطم العمران، ويقومون باستمالة الغرائز بحيث لا يمنع أحد مما يشتهي بحال .. ١.

وقد ادعى زعيمهم «بابك الخرمي» أنه إله يملك الأمر والنهي، فأمن به القوم ووعدهم بملك الأرض، وقتال الجبابرة، وما لبث أن تجمع حوله الأوشاب من كل مذهب، فاستشرى أمره، وعظم، وصار ذا خطر عظيم وبأس شديد.. وقد انزعج المأمون لشورة بابك أكبر انزعاج، ووجه الحملات الضخمة لإبادته، فما رجعت بطائل، وتساقط قواده العظام في الميدان قائداً بعد قائد، فحزن الخليفة حزناً شديداً، ووافته منيته وهو يفكر في أمر هؤلاء الفوضويين، فاستدعى ولي عهده المعتصم، وكتب له يقول في وصيته: «وعليك بالخرمية فاغزهم ذا بأس وصرامة، وأكفهم بالأموال والسلاح والجنود

والفرسان ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من
أنصارك وأوليائك ، واعمل لذلك عملاً خالصاً راجياً ثواب
الله عليه .. »

وحين ذاع نعي المأمون فرح الخرمية فرحاً شديداً ،
واستفحل أمرهم استفحالاً يؤذن بالشر ، فدخل فيهم طوفان
من أذربيجان ، وهمذان ، وأصبهان ، وغيرها ، وبدأ « بابك »
يفرض ألوهيته على الأرض ، ويبذر تعاليمه المبيدة في الناس ،
والأفواج خلف الأفواج تترامى على قدميه ، فاهتم لأمره
المعتصم ، واستعرض أبطاله ورجاله فاحصاً باحثاً حتى استقر
رأيه على الأفشين ، فهو فتى الهيجاء ، وبطل الكفاح ، فسيره
على رأس جيش ضخم مزود بالعتاد والرجال ، وانطلق القائد
يضع الخطط ، ويرسم المواقع والحصون ، ويبتث العيون
والأرصاء ، ويخترق الصفوف في الميدان ، ويدير المعارك
الرهيبية في ظلال السيوف المتشاجرة ، والرماح المتعانقة حتى
تم له النصر في موقعة « أرشق » وفر الإله المزعوم هارباً مدحوراً ،
وتبعته جيوش الخلافة حتى نزل متنكراً بأرمنية ، فعرفه أحد
البطارقة ، وكاتب الأفشين بشأنه ، فحاصره حصاراً عاتياً ،
وهزم فلوله المتناثرة هزيمة ساحقة ، وقاده مخفوراً إلى
المعتصم ، فاكسب بذلك فخر الأبد .. وتبوأ سنام البطولة

الفذة، إذ وقى الإسلام من وحوش الغرائز، وذئاب الإباحية، وأعاد إليه حصونه المنيعة في بلاد ما وراء النهر بعد أن داهمتها الأعاصير، وقد استقبلت بغداد وسامراء... قائد الخلافة استقبلاً حافلاً خرج فيه الخليفة في رهط من وزراء الدولة وأعيانها وأمرائها، وأكب الشعراء على القائد المغوار يصوغون له القلائد النفيسة، وعلا الهتاف في كل مكان بحياة حيدر، واستطار المعتصم به إعجاباً، فأخذ يبعث إليه في صبيحة كل يوم حلة شرف غالية تصحبها التحف الغاليات الرائعات !!

واقراً شعر أبي تمام في الأفشين فستجد الصدى العميق للفرحة الهائلة التي غمرت الإسلام بالقضاء على الخرمية، وستعلم أية منزلة عالية تسمنها القائد الباسل فأصبح سند الخلافة وركنها الحصين.

على أنه لم يخلد إلى الدعة قليلاً بعد كفاحه الميرير، فقد سار لمصاولة الروم والانتقام لغدرهم الشائن بالخلافة والإسلام، وذلك أن بابك الخرمي كان قد كتب إلى قيصر الروم، في أثناء حروبه مع الأفشين، يحرضه على الرقبة بالثغور الإسلامية في وقت توجه فيه الخلافة قوتها إليه، ولاستطيع أن تقف في وجه الروم، وكان بابك قد أراد أن

يفرق الكتابب الإسلامية فى جبهتين قويتين فلا تستطيع أن تكسب النصر الحاسم فى رأيه، وكان ما أراده الثائر الخطير فقد اهتبل القيصر الفرصة السانحة وانقض على (زبطرة) الإسلامية بجيش يزيد عن مائة ألف مقاتل، فقتل مئات النفوس، ثم تقدم إلى (تلطنة) وسواها من الثغور الإسلامية فأمعن فى العرب قتلاً وتنكيلاً ولم يبق بد من الانتقام!!

فتحركت جيوش الخلافة إلى القيصر الغادرا، وتقدم القادة العظام على رؤوس الكتابب الزاحفة من كل مكان، وكان الأفشين أول من أوقع بالروم فهزم جيش القيصر، وتابع الزحف مستعيناً بالفرق الأخرى من الجيش حتى أسقط «عمورية» وهى يومئذ أمنع بلاد الروم، وأقوى حصونهم بأساً ومنعة، وانطلق الهتاف يدوى بحياة «حيدر» وقد ضم إلى مجده التالد مجداً طريفاً، وسارت ببطولته الركبان، وتغنى الشعر بفتوته الخالدة، فنظم الحسين بن الضحاك الباهلى رقايقه الفاتنة فى مدح الأفشين، وكسب إكبار العامة والخاصة والبطولة فى كل زمان مهوى الأفئدة وأمنية النفوس الكبيرة! أجل لقد رجع «حيدر» من غزاة الروم مظفراً منصوراً، فالتهمت قلوب الرؤساء فى الدولة حقداً وحسداً، وتجمعت عقارب المكيدة من كل صوب، فهما هو ذا القائد ينعم

بالإعجاب والمجد، ويقول عنه الناس إنه سيف الدولة وبطل الخلافة.

ولئن دام أمره لسطعت شمسُه وهاجة وضِيئة تستر ما حولها من بدور ونجوم!! لابد من عمل حاسم تكشف به هذه الشمس الساطعة دون انتظار فتبرد أكباد يئز بها الحقد، وتصح قلوب يسقمها الغل، وأنى لذلك، والعامة في كل مكان ينسجون عن البطل الكمي أساطير البطولة، وينشرون حديثه في الآفاق فرحين مهللين؟

فمن أية ناحية يقتحمون على النسر أوجه الشاهق، وقد حلق بالفضاء وأطلق جناحيه في الرياح!!، لن يسقطه من عليائه غير الاتهام الجريء بالكفر الصريح وفساد العقيدة وسوء الطوية، فذلك كله كفيل بتحطيمه، وما زال الاتهام الديني في كل زمان متنفساً لما يغلى في النفوس من الأحقاد، وقد بذلت الجهود المضنية في نسج التهمة الفاجرة، وأضيف إليها حوادث شخصية لفقها الكيد وصاغها البهتان، ثم ألقت لجنة المحاكمة من أناس يضطغنون على الأفشين أسود الاضطغان، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن أبي دؤاد، وإسحق بن إبراهيم، ووقف الأفشين يدافع عن نفسه في قضية خاسرة أعد حكمها قبل حضوره،

وهيء شهودها الفجرة، فساقوا عدة اتهامات زائفة، وانطلق ابن عبد الملك يسأل، وحيدر يجيب.. لقد اتهم الأفشين أولاً: بأنه حرض «مازيار بن قارن» على قتال آل طاهر، والخروج على المعتصم، وجاء «مازيار» فاعترف بذلك، ولكن الأفشين أنكر التهمة، وطلب الكتب التي حرضه بها إن صح زعمه، فلم يقدم «مازيار» شيئاً، وتلجلج في موقفه.. وطبيعي أن يكون للتحريض إذا وجد رسائل ومكاتبات، فما تقدم من الناس شاهد واحد أو عشر على رسالة مريية!! ويرغم هذا الإفك السافر فقد ألصقت التهمة بالمدن البريء!!

واتهم الأفشين ثانياً: بأنه ضرب إمام مسجد ومؤذنه بالسوط لأنهما بنيا مسجد «باشروسنة»، وقال المتهم: إن بينه وبين ملوك الصفد عهداً على أن يترك كل قوم على دينهم، فوثب هذا الرجلان على بيت للأصنام، واتخذاه مسجداً بدون أمره، فضربا بالسوط حسماً للنزاع ووفاء بالعهد، وهذا تأديب له تبريره المعقول، ولكن القضاة قد استنتجوا منه الكفر الصريح!

واتهم الرجل ثالثاً: بأنه يأكل لحم الخنوقة ويحل أكلها، ويشهد بذلك مجوسى أجبر.. فينفى المتهم ذلك عن نفسه ويسأل: كيف رآه الشاهد، وليس بجاره ولم يؤاكله.. ولكنه

مصدق لدى القضاة برغم ذلك ، فيسأل الأفشين : هل هذا المجوسى ثقة فى دينه لديكم ؟! فيكون الجواب بالنفى ! ومع الاعتراف بعدم الثقة فشهادته مقبولة ولا ترد بحال .

واتهم الأفشين رابعاً : بأن أهل بلاده يخاطبونه خطاب الآلهة . فقال مدافعاً عن نفسه : لقد كانت هذه عادة القوم معه ، ومع آبائه وأجداده - وكانوا من الملوك - قبل أن يدخل فى الإسلام ، فلم يرد أن يضع نفسه عن قدرها الأول ، فتفسد طاعته لدى أتباعه ، وواضح أن حيدر كان يصلى ويصوم وينطق بالشهادتين فشبهة تافهة كتلك لا توجب تكفيراً يقابل بالصلب والتحريق ! .

واتهم خامساً : بأنه يحتفظ بكتاب فارسى زين بالذهب والجوهر والديباج وبه بعض الكفر الصريح ، فأجاب بأنه ورثه عن آبائه ، وكان يقرأ ما به من الأدب دون غيره ، ومثله مثل كليلة ودمنة سواء بستواء ، ولن يكون الاحتفاظ به خروجاً عن الإسلام فى شىء .

مهما يكن من أمر فقد عجز القضاة أن يدينوا صاحبهما بجريرة صادقة ، وبالغوا فى التحامل والافتيات حين يسأله ابن أبى دؤاد عن الختان ؟ وهل أجرى له بعد إسلامه . . ؟ وكأنه بذلك اكتشف ثغرة هائلة ينفذ منها إلى الإدانة

الصريحة، وليس الختان بواجب عين فيكون مجالاً للتشهير
إلا أن يكون الحكم المفروض متحيزاً أوضح تحيز !!

لقد كان العدل الصريح يفرض على المعتصم أن يصم آذانه
عما تدبره حاشية السوء من خاتمة رهبة لبطل فذ ناضل عن
الخلافة في أوقاتها العصبية، ولكنه وهو الخليفة الأمي قد
خاف على مملكته الواسعة لو شاية كاذبة نهض بها حقوق
أثيم، فأغلق أذنيه عن هواجس ضميره، متأثراً بما سمع،
وكانت الخسارة فادحة فقد دارت الدائرة على البطل الشهيد.

إن من بدائه الأمور ألا يكون الخصم حكماً فإذا أُرْجف
المرجفون بإنسان ما، وألزمت الحيلة ذويها أن يقوموا بمناقشة
ما يذاع في محاكمة علنية واضحة، كان من الأكيد الأُلزم أن
يختار رئيس المحكمة من المحايدين العقلاء، الذين لا يضمرون
للمتهم حفيظة تاكل الأكباد، وتحرق الضلوع، وحينئذ
يستقيم ميزان العدالة في يد أمينة ذات حيده وإنصاف، وقد
كان أعداء الأفشين في طليعة محاكميه فاتبعوا الهوى
الطائش فيما أصدره وقدموا للأجيال عبرة أليمة يجب أن
يتعظ بها الناس !

ومن العجيب أن حوادث التاريخ تكرر، وعظات الدهر
تتكاثر، دون أن تترك صداها البالغ في النفوس، فكم من

مفاجع دونتها الأيام وتلاها الناس فما منعت شراً يتجدد ، أو
أطفأت حريقاً يلتهب مما يحتم أن تنهض التربية الإسلامية
على أسس عميقة من الإيمان بالمثل والهيام بالمبادئ ، فالتاريخ
وحده لا يقدم لقرائه العظة البالغة إلا إذا كان لديهم ضوابط
رشيدة من الخلق القوى والدين القويم ، وبذلك تتكاتف
جميع العناصر على استئصال الشرور ، واستثمار الفضائل
أخصب استثمار .

ولقد تبين للأفشين ما يتربصه من أهوال ، فأرسل للخليفة
كتاباً تنزف سطره دماً وتتأجج الزفرات في حروفه
وفواصله ، فهو يقول بعد كلام طويل : «إنما مثلى ومثلك يا
أمير المؤمنين كرجل ربي عجلاً حتى أسمنه وكبر ، وكان له
أصحاب يشتهون أن يأكلوا لحمه فعرضوا بذبحه فلثم يجبههم ،
فاتفقوا جميعاً على أن يقولوا له : لم تربى هذا الأسد فإنه إذا
كبر رجع إلى جنسه ؟ فقال لهم : إنما هو عجل ، فقالوا : هذا
أسد ، فسل من شئت ؟ وتقدموا إلى جميع من يعرفون ، وقالوا
لهم : إذا سألكم عن العجل فقولوا : إنه أسد ، فكلما سأل
إنساناً ، قال : هو سبع ... فأمر بالعجل فذبح ، وأنا ذلك
العجل يا أمير المؤمنين ، فكيف أقدر أن أكون أسداً ؟ قاله الله
في دمي .»

ولعمري لقد صور البطل البليغ موقف الخليفة منه أدق تصوير فقد امتنع المعتصم أولاً عن إيذائه، فاختلف جلساؤه التهم القاسية لرفضها رفضاً أكيداً، فألحوا عليه حتى تشكك، وبدأ يسأل ويبحث، على حين يجيب السائلون بما يتلقون من إفك صريح حتى تأكد الزعم وأصبح العجل أسداً فسيق إلى سجنه الرهيب، وقتل صبراً ثم صلب بمراً من العيون.. وانطلق المرجفون يعلنون كفره بمروقه في مجتمع حتى أفلحوا في خداع العامة، وانبرى أبو تمام مادحه ومهنته وكان قبل ذلك يهجوه، ويثلبه، ويصمه بالكفر الصريح، ولا أدري كيف انساق الشاعر مع دهماء العامة؟ فيغير رأيه فجأة تصديقاً لدسيسة كاذبة أو أنه عرف الحقيقة الأليمة واندفع في مركب النفاق يتملق الحاقدين!

إنها لحنة قاسية تسجل بالألم واللوعة لشهيد مظلوم ظلت تتبعه الأراجيف متناقلة في صحف التاريخ، وتجدد من حملة الأقلام من يسطرها كقضية لا يأتيتها الباطل، وها نحن أولاء نوجه الأنظار إلى دحضها بعد زمن بعيد!! وكم في التاريخ من حقائق تعتمد على الأساطير.

أبوالمسك كافور
يهجوه المتنبي دونه ذنب

صلى الشريف العلوى فريضة العشاء فى مسجد أحمد بن طولون مساء عيد الأضحى، وكان المسجد يأتلق بالأنوار، وتفوح فيه رائحة الند، إذ لا تزال بقية الأريج نافحة منذ الصباح حين أقيمت صلاة العيد، ولكن جمهور المصلين لم يكن بالكثرة كما كان فى ليلة العيد، حين ازدحم المسجد بالراكعين والساجدين ازدحاماً منقطع النظير، وحين ضاق المسجد ليلاً بزائريه، فرشت البسط من حوله، وأخذ الناس فى تلاوة الأذكار والأوراد منذ صلاة المغرب، حتى أذنت العشاء فأقيمت صلاة الجماعة خارج المسجد وداخله، وكان الذين يصلون وراء الإمام بالخارج أضعاف من أخذوا أمكتهم بالداخل.

وقد لحظ الشريف العلوى ما كان من الفارق بين الليلة واللييلة، ثم مد بصره إلى جانب منبر المسجد فرأى الشيخ الوقور الزاهد أبا عبدالله بن جابر يجلس وحده، ويتمتم بكلمات متصلة كأنه يقرأ سورة من سور الكتاب الكريم بينه وبين نفسه، فلم يشأ أن يقطع عليه تلاوته، وانتظر حتى أدت جماعة العشاء، وتوجه إليه مهنتاً بالعيد، فسلم أبو عبدالله فى هدوء مساكن، كأنه كان مشغولاً بشىء آخر، فقال له الشريف العلوى: لن أتركك وحدك هكذا ساهماً

ساكناً في مساء العيد، فلا بد أن نقضى السهرة معاً، إما في منزلك أو منزلي، وبيتي قريب فينيا.

قال أبو عبد الله: ومن الذى يخالف رغبة السيد الشريف، والله لن تتم بهجة العيد إلا برؤية الأحباب من ذرية رسول الله وآل بيته الكريم، وانطلق الرجلان يسيران فى صمت حتى إذا أخذا مكانهما فى منتدى الشريف، وكان به من ينتظرونه من أتباع وشيعة، أخذ الحديث يتشعب، فقال أحد الحاضرين: لقد جرى الأستاذ أبوالمسك كافور على عادته ليلة العيد، إذ بسط من الموائد، وقدم من الأطعمة ما يكفى جميع الساكنين بمصر لو اجتمعوا فى مكان واحد. فقال متحدث آخر: وهل يعقل أن يجتمع أهل البلد دون أن يتأخر أحد، وأنا مثلاً لم أحضر وأعرف كثيرين من أهل الحى الذى أقطنه لم يحضروا، ففيم هذا الإسراف؟ وأين يذهب هذا الركام الهائل من اللحم والخبز والفاكهة والحلوى!

قال الشريف: رويدك يا أخى، إنى أعرف أن الخدم يدورون على المنازل بما يبقى ويخصون الفقراء بألذ ما يؤكل، والأستاذ أبوالمسك يشرف بنفسه على التوزيع، ولا يذهب إلى مقره إلا فى الهزيع الأخير من الليل.

قال متحدث ثالث: هذا غير الهبات المالية، فنحن جميعاً

نعرف أن أبا بكر المحلى صاحب خزانة أبى المسك يقود كل ليلة عيد جملاً محملاً بالذهب فى صرر كثيرة لا حصر لها يعدها كافور بنفسه، ثم يطوف من بعد العشاء الأخيرة حتى قبيل الفجر على المنازل ومعه صاحب الشرطة، ونفر من خاصة الأستاذ أبى المسك، فيطرق المنازل فى هدوء، فإذا أتاه من طرق عليه الباب قال له : الأستاذ أبوالمسك كافور يهنئك بالعيد ويقول لك : أصرف هذا فى منفعتك، ويسلمه الصرة الذهبية ثم يمضى إلى سواه، وهكذا حتى يؤذن الفجر !
نعرف ذلك كلنا، فلا عجب أن يذهب بالطعام إلى منازل المحتاجين !

وكان أبو عبد الله بن جايار، ساكتاً لا يتكلم، فقال له الشريف : جئنا هنا لنتسامر يا أبا عبد الله، وقد رأيتك بالمسجد مطرقاً كالعابس، فجئنا هنا لنبدل جواً بجو، فقيم عبوسك، ولماذا لا تشارك فى الحديث ؟

تفرس أبو عبد الله فى وجوه الحاضرين، وهم يعرفون مكانته من التقوى والزهد والعمل الصالح، ثم ابتسم قائلاً :
لم أكن بعيداً عنكم فيما تتحدثون، فقد كنت بالمسجد أفكر فى أمر كافور معى ومع الناس !

قال الشريف : أأستاذ أمر معك !

قال : نعم، فقد فاجأني الليلة الماضية بما لم أكن أتوقع، حيث نهضت في منتصف الليل لأتوضأ، فسمعت طرقاً على الباب، ففتحت، فإذا أمامي أبوبكر الخلي، فسلم عليّ، فقلت له : ما حاجتك ؟ قال : الأستاذ أبوالمسك كافور يخص الشيخ بالسلام، قلت : والى بلدنا ؟ قال : نعم، قلت : حفظه الله، الله يعلم أنى أدعو له في الخلوات، وأدبار الصلوات.

قال أبوبكر : قد أنفذ معي الأستاذ صرة إلى بها مائة دينار، ويسألك قبولها لتصرف في مئونة هذا العيد المبارك.

فتجههم وجهي، وقلت للرجل : نحن رعية الأستاذ، ونحبه في الله تعالى، وما نريد أن نفسد هذه المحبة لعله من العلل، وأنا غير محتاج، والله هو المعطي، فألح أبوبكر حتى ضايقني، فنهرته وانصرف، ولم تمض ساعة حتى سمعت الطرق المتواصل، فتقدمت لأفتح الباب، فرأيت أبا بكر الخلي، فسألته : ألم تكن عندنا ؟ فقال : ذهبت إلى الأستاذ فأخبرته، فبعثنى ثانية لأقول لك : يا ابن جبار، ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة، فمن كافور ؟ من العبد الأسود ؟ أتدرى من الذى أعطاك ؟ وعلى من رددت ؟ أنت لا تفرق بين السبب والمسبب، السبب هو أنا، والمسبب هو الله، أترفض عطية الله ؟

قال أبو عبد الله : فأخذتني رعشة لعظيم ما سمعت ؟
وقبلت الصرة ، ومازلت أفكر مذهولاً في الأستاذ حين يقول
إلى : من كافور ؟ من العبد الأسود ؟

قال الشريف : لو كنت يا أبا عبد الله تحضر مجلس كافور ،
أو تسير في ركبته ما استغربت ذلك منه ! لقد كان يسير في
طريق من طرق المدينة راكباً فرسه المطهم ، وحوله حراسه
وجنوده ، ومن خلفه عماله وذوو المكانة من مستشاريه ،
فترجل عن فرسه ، ووقف على الأرض شاخصاً ببصره إلى
السماء ، ثم سجد سجدة الشاكر لله ، حتى إذا فرغ من
سجده ، التفت إلينا وقال في صوت مرتفع سمعه كل من
معه : لقد تذكرت شيئاً حصل لي حين قدمت هذه البلاد ! لقد
كنت عبداً لطباخ يقيم في هذا المكان ، وكان يضربني ضرباً
مبرحاً ، ويجيعني إجماعاً قاتلة ، رغم ما أبذل في عملي من
مشاق ، وقد ضربني ذات صباح في هذا المكان الذي سجدت
به شكراً لله ، ضربني بمغرفة ساخنة كانت في يده ، ضربة
شديدة لم أحتمل قسوتها المفرطة ، ووقعت على الأرض
مغشياً عليّ في هذا المكان والآن وقد مررت به في هذا المركب
ترأت لعيني صورتى وأنا مغشى عليّ ، فحق لي أن أسجد !

قال الشريف : إن الذي يقص هذه القصة ، إنسان عظيم

النفس، يعرف أن قيمة الرجل بأعماله لا بلونه، فلا يتنكر لماضيه؟ وهذا ما جهله المتنبي حين غير الأستاذ بلونه ومظهره الجسمي، فلم يكن لهجائه صدى لدى الفاقهين.

وكان سيبويه المصري يجلس مع القوم محدقاً بعينه دون أن ينطق، فلما جاء ذكر المتنبي صاح على عاداته: رويدك أيها الشريف! من المتنبي حتى يكون له الحكم على كافور؟

إن الغافلين يقرءون هجاء المتنبي لكافور فيفرحون، ويعدونه ذا ألمعية بارعة ولكنهم ينسون أن المتنبي جاء إلى مصر هارباً من سيف الدولة، فوجد الأمن والرفاهية، ولاقى من إنعام كافور أضعاف ما كان يلقاه من سيف الدولة، فقد أفردت له القصور، وخص بالخدم والعبيد، وجرى بيده الذهب والفضة، وهذا منتهى ما يأمل شاعر متزن من ممدوحه، ولكن الشاعر المغرور لم يرد الذهب والفضة والخدم والقصر، إنه أراد أن يكون أميراً على دولة كبرى يمنحها له كافور، أليس هو القائل:

وغير كثير أن يزورك راجل

فيرجع ملكاً للعراقيين واليا

وهو القائل :

أما المسك هل فى الكاس فضل أنا له

فإنى أغنى منذ حين وتشرب

فهو يريد أن ينازع كافوراً كأسه التى يشرب منها . وكافور حاكم عاقل ، يعرف أن يضع كل إنسان موضعه المناسب ، لأن للولاية رجالها ، وللأدب رجاله ، وبه جعل المتنبى حاكماً على اليمن ، أفيسطيع مثله أن يضبط الأمور ، ويمنع الثورات ، وهو رجل صناعته الكلام ، فكما لا يستطيع كافور أن ينظم قصيدة لا يستطيع المتنبى أن يحكم دولة ، ولو أعطاه كافور ما تمناه لما كان الرجل الحازم الذى عرفناه ، ثم من الذى يصدق الأهاجى ممن أكثر المدائح من قبل ! إن صدق فى الثانية فقد كذب فى الأولى ، ومن اعتاد الكذب محال أن ينطق بالصدق الصريح .

قال الشريف : أحسنت فيما ذكرت يا سيبويه ، وأنا أعرف مناقشاتك للمتنبى ومجابهاتك إياه ، وقد أصبت موقع الصواب فى قضية كافور مع المتنبى ، ولكن غيرك لا يدرك غورك البعيد .

قال أبو عبد الله بن جيار : إن الذى يدهشنى من أمر كافور أنه دائماً يذكر الناس بأنه كان عبداً أسود ذليلاً يضرب

ويهان ، ولم يعبه المتنبي إلا من هذه الناحية ، فلم لا ينسى
أبوالمسك تاريخ حياته القديم ؟

فصاح سيبويه بعد ضحكة طويلة جذبت انتباه الحاضرين
فتطلعوا إليه يستمعون قوله : يا قوم ما رأيتم أذكى من أبى
المسك ، إنه مثل دور الخطيئة أبدع تمثيل ففاز بما أراد .

قال الشريف العلوى : ما هذا الخلط العجيب يا سيبويه ،
أكافور صاحب الأمر والنهى فى أكثر ما حولنا من الممالك
يمثل دور الخطيئة أبدع تمثيل !

قال سيبويه : دونك فأسمع ...

لقد نشأ الخطيئة لقيطاً لا يعرف أباه على وجه أكيد ، وعلم
أن الناس سيعيرونه بأمه وأبيه ، فبدأ بهجاء الاثنين ، ليقول
لمن يحاول انتقاصه : أنا أهجو أبى وأمى وأتبرأ منهما ، فلن
يضيرنى أن أعير بمن بدأت أنا بهجائهما ، إن هجاءك له من
تحصيل الحاصل ولن ألتفت إليه ، وفوجئ خصوم الخطيئة بأنه
قطع عليهم الطريق فسكتوا حائرين ، وكذلك كافور الداهية ،
عرف أن الناس لن ينسوا أنه قدم من النوبة عبداً دميماً ،
فاشتراه طباح مهين ، وأخذ يسومه سوء العذاب ، وعلم أنهم
فى مجتمعاتهم الخاصة يذكرون ذلك ، وكأنه نقیصة فادحة ،
فرأى أن يسد هذا الباب ، فأخذ يردد ما كان من نشأته ليقول

للقوم: ما ترونه موضع نقص أذكره أنا بنفسى شاكراً لله أن
بوأنى أعظم مكان فى مصر، فهل صنع أحراركم بعض ما
صنعت ا

قال الشريف العلوى: كفى ما تحدثنا به فى هذا المجال،
واسكت يا سيبويه، فأنا أعرفك ثرثاراً لا تكف عن الكلام،
ولم يدر الشريف أنه بهذا القول فتح على نفسه باباً من
اللهب المحرق، إذ هاج سيبويه واحتد يقول: أعلم أيها
الشريف أن قولى لم يصادف موضع ارتياحك، لأنك تعتز
بحسبك ونسبك، وترى فى أعماقك أن كافوراً دونك فى هذا
المجال، وأنا أعالنك بأن كافوراً ليس أفضل منك وحدك ا
ولكنه أفضل من هارون الرشيد أعظم خلفاء بنى العباس.

فتدافع الحاضرون يحولون دون استطراد سيبويه، ولكنه
أقسم بالله أن يتم حديثه وإن اعترض الجميع، وانبرى يقول:
لقد تعجبتم من قولى إن كافوراً أفضل من هارون الرشيد
أعظم خلفاء بنى العباس، وأنا أذكر لكم دليلى الذى لا يقبل
الرد، إن هارون الرشيد ورث الملك عن أبيه وجده، فلم يبذل
أدنى جهد فى اقتطاف الثمرة حين أتته الخلافة عن طريق
الميراث، أما كافور فقد نشأ نشأة العبد الممتهن، وكان
قصارى شأنه أن يحترف ما يحترفه عبيد النوبة والسودان ممن

تفتحهم العيون، ولكن عبقريته النادرة ذللت له الصعاب،
ومهدت له الأوعار، فجالد الخصوم من السادة، ونازل الأعداء
من الأحرار، حتى جمعهم في قبضته، وأخضعهم لرئاسته،
وحتى صار كما قال أبو الطيب المتنبي في شأنه:

يدبر الملك من مصر إلى عدن
إلى العراق فأرض الروم فالنوب
إذا انتهت الرياح النكب من بلد
فما تهب بها إلا بترتيب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت
إلا ومنه لها إذن بتغريب
فما تقول في ذلك أيها الشريف؟

تميز الشريف من الغيظ، ولكنه كتم مواجده كيلا يتسع
الخرق على الراقع فينقل الحديث مشوهاً إلى كافور، فابتسم
على كره، وقال ملاطفاً سيبويه: حنانك أيها النابغة، لقد
ظلمتني وظلمت الحق حين قلت: إني أرى أن كافوراً حرسه
الله دوني، وكيف، وهو سيد البلاد عن كفاءة واقتدار، ونحن
جميعاً ندين له بالطاعة!

قال عبدالله بن جايار: ونحن نعرف منزلتك لديه أيها

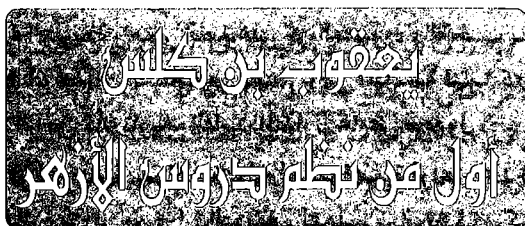
الشريف من يوم سقوط المقرعة؟

قال سيبويه: أَللمقرعة يوم حتى يكون لسقوطها أيضاً
يوم؟

فصاح عبدالله: لا تهزل يا سيبويه، فالحادثة مشهورة
متعالة، فقد كان للشريف العلوى حفظه الله يساير أبا
المسك يوماً، وخلفهما بغال تحمل الأمتعة والمال، فسقطت
مقرعة أبى المسك، ولم يرها أحد من خدامه وحاشيته، فرأى
الشريف أن يلتقطها ويسلمها لكافور، ولكن أبا المسك
استعظم ما فعل الشريف فصاح به أمام جميع الحاضرين: أيها
الشريف، أعوذ بالله من بلوغ هذه الغاية، ما ظننت أن الزمن
يبلغنى إلى أن تحمل مقرعتى إلى، إن هذا ما لا يحتمل، لا بد
أن أسير معك إلى قصرِكَ لأودعكَ، أنا وأكون فى ركبك،
فحلف الشريف ألا يفعل. فقال كافور: أما إذا أبيت فكل ما
تحمل هذه البغال من متاع ومال فهو لك، وقد قوم مقدار هذه
المنحة فبلغت خمسة عشر ألف دينار.

قال الشريف: لعل سيبويه يستغفر الله مما قال.

وخاف الحاضرون أن يمتد القول إلى ما لا يليق، فنهضوا
مستأذنين، وودعهم الشريف فى ملاطفة وابتسام.



من يطالع تاريخ الأزهر فى نشأته الأولى يجد اسم الوزير الفاطمى الكبير «يعقوب بن كلس» يتألق بوضوح، إذ كان من متقدمى علمائه الذين قرءوا العلم فى حلقاته، كما كان صاحب اليد الأولى فى جعله معهداً علمياً لا يقتصر على العبادة وحدها، بل رتب له طلاب العلم من التلاميذ، وأساتذة التوجيه من المدرسين، حتى أخذ بذلك صبغته العلمية وأصبح حرم الشريعة وحمل اللغة على كر العصور، والعجيب بعد ذلك أن نجد من الكتاب من يضطرننا إلى المناقشة فيما كتب عن الرجل كأن تاريخه الثابت المتداول غامض مجهول.

قرأت كتاب «مساجد ودول» للسيدة سنية قراعة، وقد فاز بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨، كما صدره السيد وزير الأوقاف الأسبق بكلمة تجمع الشاء عليه وتدعو إلى متابعة التأليف فى موضوعه، مما يوحى بأهميته وجودته، ولكنى - والحق يقال - لمست فى بعض فصوله تسرعاً عاجلاً، واستنباطاً بعيداً يدعو إلى إعادة النظر فى مباحثه، وسأقصر حديث اليوم على ما جاء بشأن الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس، إذ ظلمته الكاتبة ظلماً لا يستند إلى مرجع تاريخى واحد، ولكنها عرفت مبدئياً أنه كان يهودياً وأسلم، فرأت فى يهوديته السابقة ما استعانت به

على الاتهام والازدراء، ولم تقدم مرجعاً واحداً يؤيد رأيها في الرجل المظلوم! ولكنه الاستنتاج المتسرع فقط.

وسأنقل هنا بعض ما قالت الكاتبة الفاضلة، ثم أشفعه بما أرى من النقد والتصويب، راجياً أن أصل إلى الحق من طريق قريب.

تقول السيدة سنية قراعة فيما قالت ص ١١٥ :

«وعندما هرب اليهودى الحاقد «يعقوب بن كلس» من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدي، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت قدره، لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانتة، فيصبح من المتقدمين فى الدولة الجديدة.

لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة الإمامية بغيته، وكان نطقه بالشهادة يوم أشهر إسلامه معبراً إلى التمكن والسيادة، ووسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة، حتى لقد تمكن وهو حديث العهد بالدين والدعوة من وضع مصنفات فى فقه الشيعة وشتى أهدافها السرية التى لا يصل إلى معرفتها والعلم بها غير أصحاب الحظوة من المقدمين المقربين إلى الإمام.

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور في حلبة الحكم أيام المعز، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه، بل تصاغر وتراجع واعتزل، واعتبر تلك الفترة فترة استجمام، ورغبة في الاستفادة من ذلك الاعتزال بأن راح ينقب ويبحث ويدرس».

ثم تحدثت المؤلفة بإفاضة عن جهوده التعليمية في عهد العزيز بالله، لتخلص منها إلى قولها العجيب ص ١٢٤ :

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام، ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع، مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود».

ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار في الدعوة الغامضة، فأراد أن يشحذه وأن يوجهه إلى أهداف أقرب، ليصيب ويدمى ويقتل ويشفى غليل العداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموه.

وقبل أن نأخذ في مراجعة هذه الأقوال نذكر أن كتابة التاريخ عسيرة شاقة تستلزم قراءة الصحف الكثيرة من متقدمة ومتأخرة، ويوجب على صاحبها أن يبني استنباطه على استقرار تام لما قيل، فمن التسرع الواضح أن تطرأ على الكاتب فكرة توحى بها مناسبة ما، فتكون نقطة ارتكاز تمتد

وتعظم دون أن تسندها رواية صحيحة أو حقيقة ناصعة ! وإلا فهل كانت يهودية ابن كلس الأولى كافية عند الكاتبة لأن تلغى من الوجود صحائف أعماله وسجلات مؤلفاته ، وتجعل منه وصولياً حاقداً يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وإن أجمع على غير ذلك مؤرخو الرجل ، ووقفوا من الكاتبة الفاضلة على النقيض .

نحن نعلم أن كثيراً من اليهود كعبد الله بن سبأ وأشياعه أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، يريدون أن يطفئوا نور الله بما يأتون ويجترمون ، فجاءت أفعالهم المنكرة صارخة بإجرامهم البغيض ، ولم يسكت عنهم أحد ممن يميزون الطيب من الخبيث ، بل وضعت أفعالهم السافرة موضع التعليل والتشريح ، فدمغتهم بالخيانة اللئيمة ، والحقد الشائئ البغيض ، وأجمع المؤرخون على دناءتهم المخزية ، دون أن يجروا كاتب على تبرير مسالكهم الشائنة ، ومؤامراتهم المستفظة ، ولكننا نعلم مع ذلك أن يهودياً كييعقوب بن كلس قد أسلم عن اعتقاد ولم يسلف من الأعمال ما يضعه موضع المزاخدة من معاصريه مع من تلاهم من الأجيال ، أفيجوز لنا أن نطمس أعماله الرائعة ، وأن نكذب التاريخ في تسجيل صنائعه الحافلة ، لأنه كان يهودى النشأة فقط ! مع أن الإسلام يجب ما

قبله كما قال الرسول الكريم !! ذلك منطق ساذج نربأ بذوى
الأقلام أن يأخذوا به فى قليل أو كثير ، وسنناقش الآن بعض
ما ذكرته المؤلفة الأدبية لترفع عن الوزير المظلوم ما نزل به من
حيف شديد !!

تقول السيدة الفاضلة : «عندما هرب اليهودى الحاقد
يعقوب بن كلس من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط
كافور الإخشيدى ، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية
ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره ، لم
يكن يبغي إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر ،
وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانتة ، فيصبح من المقدمين فى
الدولة الجديدة» .

وظاهر هذا الكلام ، أن الرجل حين هرب إلى المغرب كان
يهودياً حاقداً خائناً يخاف ذوى النفوذ فى بلاط كافور ، وهذا
غير الواقع ، فقد أسلم الرجل قبل هروبه إلى المغرب بأمد
طويل ، إذ أنه كان قبل إسلامه أثيراً لدى كافور الإخشيدى ،
تسند إليه وظائف العمارة والحماية والخراج ، فيؤديها بنزاهة
بالغة واهتمام كبير ، وكان كافور الإخشيدى عاقلاً لا يتخدع ،
فلمس من مهارة يعقوب وإخلاصه ما جعله يقيمه رئيساً
لديوانه الخاص ، ثم يبالغ فى الثقة فيأمر أصحاب الدواوين ألا

يصرف شيء ما من المال دون توقيع ابن كلس !!

وإن إنساناً يبلغ هذا المبلغ من نفس الحاكم الألعى الحصيف وهو بعد يهودى يدين بغير ما يؤمن به السواء من رجال الأمة لذوى ألمعية لامعة، وحيلة ممتازة، فإذا أعلن إسلامه بعد استعلاء منزلته وبعد صيته، فهو إسلام البصير المدرك المتيقن، إذ أنه درس قواعد الدين سراً قبل أن يسلم، وألم بما تتضمنه شريعة الإسلام من عبادات ومعاملات وعقائد على يد أناس متخصصين، حتى إذا اقتنع بما درس أعلن إسلامه فجأة، فدخل - كما يقول المؤرخون - جامع عمرو وصلى الصبح فى موكب حافل، حتى إذا انتهى من صلاته ركب فى موكبه إلى كافور، فأحسن استقباله وهناه وخلع عليه، ثم رتب لنفسه شيوخاً من الفضلاء جعل يقرأ عليهم القرآن والحديث، ويتعمق معهم فى القراءات والأصول، وظل على حظوته لدى كافور إلى وفاته سنة ٣٥٦هـ !!

وكان من الممكن أن تسير حياته هادئة سهلة بعد ذلك، ولكن الوزير جعفر بن الفرات قد تحرش به، وأمر باعتقاله طمعاً فى أمواله الكثيرة، وكانت الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور فى احتضارها الأخير، تدب فيها جرائم الفساد والضعف، وتعصف بأمرائها عوامل الترف والنزق والمجون،

وقد حل الوباء بالبلاد وارتفع الغلاء ارتفاعاً فاحشاً أوجد تدمير العامة بالحاكمين، ففكر كثير من الوجهاء والأعيان في الاتصال بالمعز الفاطمي، لينقذ البلاد مما انحدرت إليه بعد كافور، وكان يعقوب بن كلس أحد هؤلاء الذين ولوا وجوههم شطر الدولة الفاطمية فراراً من الظلم والعسف، وتطلعاً إلى عهد جديد، يؤذن بالاستقرار النسبي بعد القلق والفرع والانحلال، فلو كان اتصال يعقوب بالمعز خيانة في رأى الكاتبة، فلها أن تجعل جميع الذين اتصلوا به، غير يعقوب من المسلمين والذميين خونة أيضاً، وهذا ما لم يقل به أحد، لأن أكثرية الشعب قد قابلت جوهر الصقلي بالترحيب، ولم تقم حرب ما بين الفاطميين والمصريين عند قدوم الغزاة من القيروان، ولو أراد يعقوب الخيانة مثلاً لوجه إلى البيزنطيين دون الفاطميين، فهم أثناء هذه الفترة كانوا أعداء المسلمين!

أما الفاطميون فلم يكونوا في رأى الأكثرية الكاثرة شراً عن الأتراك الإخشيد، بل كانوا وسيلة الإنقاذ من العنف الجائر مع ما صحبه من الأوبئة المتلاحقة والمجاعات المتتاليات!!

وأنظر إلى كلام المؤلفة من ناحية ثانية فأقرر أن الرجل لو أخر إسلامه إلى حين اتصاله بالمعز لكان هناك وجه ضعيف

لصحة ما قالته من «أنه وجد في الدعوة الإمامية بغيته، وكان نطقه بالشهادتين يوم أشهر إسلامه وسيلة انتهازية للتقدم في صفوف الدعوة الفاطمية!».

ولكن إسلام الرجل قد تم في عهد كافور، والبلاد المصرية حينئذ من الثبات والاستقرار والطمأنينة بحيث لا يفكر أحد في نجاح حملة ما شرقية أو مغربية توجه إلى مصر!! ثم إن ابن كلس قد شفع إسلامه بدراسات أكاديمية جعلته في صفوف كبار العلماء، فقد ألف فيما بعد كتباً كثيرة في الفقه الإسلامي والأديان السماوية، والقراءات القرآنية وآداب رسول الله، والحديث النبوي، ووضح أن هذه الدراسات العميقة المتشعبة لا يضطلع بها غير عالم مخلص يعتنق مذهباً يؤمن به وينافح عنه، وفرق بعيد بينها وبين دراسات الاستشراق عن الإسلام في العهد الحاضر، لأن كتب يعقوب كانت كتب الدولة الرسمية في العهد الفاطمي، وقد أقرها أفذاذ العلماء من آل النعمان وهم حملة الفقه الشيعي إلى مصر، كما أقرها المعز الفاطمي ووالده العزيز، فلو كان بها شبهة مغرضة توحى بفساد عقيدة يعقوب، وشذوذه عن الدائرة الإسلامية، ولو في رأي الفاطميين على الأقل، ما تبوأَت هذه المكانة في الدولة الجديدة، بل إن يعقوب كان

يعقد مجلساً علمياً يحضره كبار الفقهاء والقضاة والمتكلمين والمتناظرين كل أسبوع، فيشرح ويفسر ويعترض ويناقش ويستدل بالقرآن والحديث .

والذى يظهر الإسلام ويبطن اليهودية لا يتسنى له أن يجد من المطاوعة النفسية والإخلاص العلمى ما يبوءه صدارة العلماء، وإمامة الفقهاء دون أن تصدر عنه بادرة ما توحى بانحرافه والتوائه، بل إن عنايته بنشر العلم بالجامع الأزهر، وتخصيص طائفة من العلماء للدراسة أولاً والتدريس ثانياً مع إجراء النفقات الوافية عليهم كل أسبوع لما يكفل لهم رغد العيش ونعيم الحياة مع الاهتمام الحريص بجمع الكتب الدينية ونسخها وتذليل طرقها للقراء والمستفيدين وإقامة الدور الخاصة بالمكاتب والوراقة والنسخ، كل ذلك ينطق باهتمام المؤمن وحرص العالم وكلف الفقيه، وقد شاع أمره واستفاض حتى لم نجد كاتباً متقدماً جعل من عقيدة الرجل موضع الغمز والتجريح على كثرة من أرخو للوزير فى القديم والحديث كابن منجب الصيرفى وابن خلكان والمقرئى وابن تغرى بردى وسواهم من المؤرخين إلى أن جاءت صاحبة «مساجد ودول» فخرجت علينا برأيها الجديد دون دليل !.

وكنتم أطمع أن تقرأ المؤلفات تاريخ الرجل فى مظانه القريبة

كيلا تسجل عليه غير الواقع الأكيد، فقد ذكرت «أن بعض الظروف المذهبية الخاصة قد حالت بينه وبين الظهور في حلبة الحكم أيام المعز، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه بل تصاغر وتراجع، واعتبر هذه الفترة فترة استجمام»، وهذا كله غير الواقع، فالرجل لم يتضاءل ولم يتصاغر في عهد المعز، بل أسندت إليه كبريات المهام من سياسية ومالية وعلمية، فقد كان القيم الأول على شئون الخراج والحسبة، والمستشار المفضل في أمور السياسة والتعمير والإنشاء، والعالم المصنف المشرع! إذ بدأ في إصدار مدونته الفقهية، وقد سميت فيما بعد بالرسالة الوزيرية، ويقولون عنها إنها تبلغ نصف حجم البخارى، وتشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية، وقد تبرع الرجل فذكر أنه نقل أحكامها مما سمعه من دروس المعز لدين الله، وهو قول يزيد في قيمة الرسالة وجلالتها الشرعية والسياسية دون أن تكون له حقيقته المسلمة، إذ لا يعقل أن المعز كان مملياً، وابن كلس مجرد كاتب، ولو كان الأمر كذلك لأسندت الرسالة مباشرة إلى المعز، ولعل ما اشتهر عن العلماء من نسبة كتبهم حيناً أو إهدائها أحياناً إلى الرؤساء كان عاملاً في تقرير هذه النسبة إلى المعز، ومن يدرى فلعل المعز تكلم في بعض المسائل

الدينية، فحرص يعقوب على تدوينها والتعليق عليها، وضم
المتشابهات من المسائل والفروع والأبواب لها، ثم جعل من
ذلك كله ما نسبته إلى علم الخليفة وتوجيهه .

فالرجل إذن كان صاحب المكانة المرموقة في عهد المعز دون
أن يجد ما يضطره إلى الاعتزال والتراجع، والمطلع على تاريخ
الفاطميين بمصر يعرف أن منصب الوزارة لم يوجد إلا في
عهد العزيز بالله، وقد كان يعقوب أول من تقلده ولقب
حينئذ بالوزير الأجل . وإذن فقد أسندت إليه أعمال الوزير في
عهد المعز دون لقبه الذي لم يوجد بعد، حتى إذا وجد في
عهد العزيز أسند إليه قبل سواه، وبهنا هنا أن نعلن ما ذكره
الأستاذ البحاث محمد عبدالله عنان، وهو حجة في التاريخ
الفاطمى، بشأن هذه الحقيقة الواضحة نقلا عن مجلة الرسالة
العدد ١٣٦ في ١٠ / ٢ / ٣٦ حيث يقول مستندا إلى أمهات
المراجع المعتمدة :

« ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه في رمضان
سنة ٣٦٢ هـ قدم معه ابن كلثوم، وقلده المعز شئون الخراج،
والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشئون المالية الأخرى،
فأبدى في إدارتها وتنظيمها براعة، وزاد الدخل زيادة
واضحة، ثم عهد إليه المعز بشئون (قصره) الخاص فكيف

تسترسل الكاتبة بخيالها فى معرض التاريخ لتصور من ابتكارها الخاص مسألة التصاغر والتراجع والاعتزال ، ثم تبنى على ذلك ما تفترضه فى الرجل الكبير من خيانة وخداع ! على أن أعجب ما قرأته للمؤلفة هو قولها :

«إن اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود» [المائدة / ٨٢] . ولو كان الرجل من أشد الناس عداوة للمؤمنين حقا ما كانت مؤلفاته الدينية الكثيرة المرجع الأول لدولة إسلامية فتية تجمع عشرات الفقهاء . والقضاة من ذوى البصر النفاذ ، وقد درسوها باهتمام وناقشوا الرجل فى أكثر مسائلها على رءوس الأشهاد فما وجدوا بها ما يعاب ، بل لو كان الرجل كذلك ما رتب فى قصره الخاص عشرات العلماء والفقهاء والقضاة للدراسة العلمية الخالصة ، ثم أجرى عليهم الأرزاق من جيبه الخاص وحدد لهم يوما خاصا فى الأسبوع للنقاش ولطارحة الحجاج .

هذا إلى ما سبقت الإشارة إليه من صلته بجماعة من الفقهاء بالأزهر وبناء الأروقة الخاصة بهم وتوجيه العزيز إلى رعايتهم وتقديمتهم وحمل الناس على احترامهم وتعظيمهم ،

مع تخصيص جانب كبير من قصره لجماعة من الكتاب
ينسخون القرآن والحديث وكتب الفقه والطب !!

أما اهتمامه بالجامع الأزهر وجامع الحاكم ومسجد عمرو ،
فمما يضاف إلى سجله الديني الحفيل ، وقد روى المؤرخون أن
الوزير حين مرض مرض الموت زاره الخليفة العزيز بنفسه ،
وقال له فى تأثر : وددت لو أنك تباع فاشتريك بملكى أو
تفتدى فأفتديك بولدى فهل من حاجة توصى بها ؟

فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينه ، ثم أوصى
العزيز بعدة وصايا هامة كانت موضع تقديره ، وحين مات
جزع عليه الخليفة ودفنه فى قبة كان قد أمر ببنائها لنفسه ،
وآثر بها وزيره العزيز ، ثم أصدر أمره بإغلاق الدواوين عدة
أيام حداداً عليه ، وشيع تشييعاً لم تعرفه مصر آنذاك لوزير
كبير حتى رثاه مائة شاعر بمائة رثاء !!

فليت شعرى أتكون هذه المكانة لخائن مضطغن حقوق
يخفى نياته الخبيثة عن جميع رجال عصره ومن تلاهم من
الباحثين حتى تعرفها المؤلفة الفاضلة توهماً دون دليل :

إن الطريقة الطبيعية لكتابة التاريخ أن تستقرئ مراجعه
الكبيرة ، ثم توازن وتنقد وتفسر ، أما أن تتوهم فتجزم ، ثم
تؤرخ فتلك طريقة تحتاج إلى تعديل .

أبو العلماء
ومحاربة القراءة

أصدرت الهيئة العامة للكتاب سِفْراً تحت عنوان (تعريف القدماء بأبي العلاء) حوى جل ما قاله السابقون فى مؤلفاتهم عن أبى العلاء وخالفهم ينقل عن سابقه حتى لتكاد ترى النص لم يختلف فى أكثر سطورهِ، ومما وقفت عنده، النص على هذه الأكذوبة القائلة بأن أبا العلاء قد عارض القرآن بكتاب (الفصول والغايات) وتكون هذه الجملة مقدمة لهجوم صارخ على الرجل، ورميه بالإلحاد! وفى المؤلفين الذين احتشدوا فى هذا الكتاب القليلون ممن أنصفوا الرجل، ورفعوا مكانته، والذين ارتابوا فى شأنه فلم يجزموا برأى إذ رووا من الأبيات ما يدل على الإلحاد الصريح وما يدل على الإيمان المطمئن الثابت عن يقين! ومجمل ما أراه فى هذه القضية أن الرجل مر بمرحلتين فى عمره الجديد، مرحلة الشباب وفيها نزع الشيطان بينه وبين اليقين فأتى بما يفرع ويروع، ومرحلة الكهولة إلى الشيخوخة، وفيها استقام على النهج السوى، وكان على الذين يلتقطون أبيات الزيف ليجعلوها وحدها موضع الاتهام أن يقرءوا كل ما قال وليعلموا أن الله قد وعد الذين أسرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله فإن الله

يغفر الذنوب جميعاً !

والأغرب العجيب من أمر الواعظ الداعية (ابن الجوزي) أنه جزم بإلحاد المعري، وقد قال عن كتاب (الفصول والغايات): «وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتاباً أسماه (الفصول والغايات في معارضة السور والآيات)، وهو في غاية الركاكة والبرودة فسبحان من أعمى بصره وبصيرته».

وهذا القول رجم بالغيب تماماً، ويدل على أن الفقيه الورع الواعظ قد كذب في قوله «رأينا له كتاباً أسماه الفصول والغايات في معارضة السور والآيات» (١) لأن الكتاب كما نراه الآن وقد طبع منذ سبعين عاماً يسمى بالفصول والغايات في تمجيد الله تعالى والعظات والعنوان مكتوب بهذه الصيغة في المخطوطات كلها فقول ابن الجوزي «الفصول والغايات في معارضة السور والآيات» يدل على أنه لم يقرأ عنوان الكتاب وهو أول ما يقرأ عادة! بل يدل على أنه لم يقرأ صفحة منه! ولكنه أصدر حكماً صار مسلماً لدى الكثير ممن تلوه! وهو في هذا الشطط يذكرني بحكمة الجائر على أبي حيان التوحيدي حيث قرنه مع أبي العلاء في حبل واحد ورماهما بالإلحاد والزندقة،

وكتب أبى حيان قد طبع الكثير منها وليس بها ماتشم منه
ريح الزندقة ! فعلام اتهام الأبرياء .

أما الفريق الذى أنصف أبا العلاء فهم نفر من الفضلاء ،
نذكر فى مقدمتهم ابن العديم ، وابن الوردى أما ابن العديم ،
فقد خصه بكتاب حافل سماه الإنصاف والتجرى فى دفع
الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى قال فيه بعض
التصرف :

إنى وقفت على جملة من مصنفات عالم المعرفة أبى
العلاء . فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان مشتملة من
علوم العرب على الخالص واللباب ، لا يجد الطامح فيها
سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة وقد قصده جماعة لم
يعوا وعيه وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه فتتبعوا كتبه على
وجه الانتقاد ووجدوها خالية من الزيغ والفساد فحين
علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك
الكذب والمين ، ورموه بالإلحاد والتعطيل والعدول عن سواء
السبيل ، فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملاحدة ، ومنهم
من حمل كلامه على غير المعنى الذى قصده فجعلوا محاسنه
عيوبا وحسناته ذنوبا وعقله حمقا ، وزهده فسقا ورشقوه
بأليم السهام وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرفوا كلمه

عن. مواضعه وأوقعوه فى غير مواقعه».

ونأخذ من هذا القول أن فى آثار أبى العلاء ما هو مكذوب عليه إذ تعتمد المغرضون أن يسيئوا إليه فأجروا على لسانه من فنون الزندقة ما لم يقل، وأخذوه بما ألصقوا به من اتهام ونسبوا له شعرا لم نجده فى سقط الزند، ولا فى اللزوميات، وهما المصدران الوحيدان لشعره، وقد علق الأساتذة محققو مجموعة التراث على كثير من الأبيات ذات الانحذار العقدي بأنها غير موجودة فيما ألفه من الكتب التى بقيت إلى الآن

أما ابن الوردي فقد التزم الحق حين قال إنه حين نظم كتاب (لزوم ما لا يلزم) وكتاب (استغفر واستغفرى) كان حائرا هائما ومذبذبا نافرا، يقر فيهما أن الحق قد خفى عنه ثم قرأت كتاب (ضوء السقط) فكان عندي مصلحا لفساده، موضحا لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فإنه كتاب يحكم بإسلامه ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة :

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾

[الضحى / ٤]

فقد ضمن هذا الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذ السمع،
ويقر العين، ويسر القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم
من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته،
والتقرب إلى الله بمدائح الإشراف من ذريته، والإقرار
بالبعث، والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر
الميعاد والترغيب في أذكار الله والأوراد، والخضوع
للشريعة المحمدية وتعظيمها وهو خاتمة كتبه، والأعمال
بخواتيمها !

ونصل الآن إلى كتاب «الفصول والغايات» التي
كثرت الروايات الموهومة عنه حين زعمت أن أبا العلاء
قد عارض به القرآن، والذي يعارض أثرا سابقا يعمل
على محاذاته في نظم المعاني وترتيب السور، والحديث
عن التشريع والهداية وقصص السابقين، والترهيب من
النار والتشويق إلى الجنة، والحث على الفضائل
الأخلاقية مما اشتمل عليه الكتاب العزيز. ولكن الكتاب
وقد طبع جزء كبير منه خاص بالتحميد والمواظ، وقد
جعله شذورا وفصولا متنوعة تحت ما يسمى بالرجع وما
يسمى بالغاية، وكل من الرجع والغاية ينتهى بحرف
يلتزمه وقد رتب هذه الفصول ترتيب الحروف الهجائية

ثم هو يذكر بين كل مرجع وآخر تفسير الكلمات الغريبة فأين هذا كله من النسق القرآنى الفريد، وأضرب مثلاً يوضح أسلوب الفصول والغايات من قول أبى العلاء:

«خوف الله معقل الأمن، والحكم له فى العاقبة والمبتدأ، لا يرد عليه عجب، وكيف يعجب من شىء خالق الخلائق ومبتدع الآزال، أيقن فما استفهم، وهل يستفهم عالم أسرار الفهمين، ولا تعرض له الأمانى، إنما تحظر لمن تضعف قدرته دون المراد، فليت جسدى من خيفته مثل الشن، وأدمعى لذلك شبيهة القطر، طوبى للمترنمين بالتسبيح ترنم هزج النهار، حتى إذا النجم طلع ترنم بالذكر مع البعوض إعظاماً لوارث الوارث».

فهل هذا أسلوب من يبتغى معارضة القرآن؟ ثم الذى يقصد معارضة ذى الجلالة لا يكتب كتابة فى التسبيح والتحميد. بل يأتى بأسلوب من يحاول الارتقاء إلى أوجه، والرجل من الانكسار والمذلة والخشوع فى توقف الرهبة الغاشية والاستعظام البالغ حد الدهش والروع وكان على هؤلاء الذين تتابعوا على نقل الخطأ ناسخاً خلف ناسخ أن يقرءوا شيئاً مما يحكمون عليه، أما أن

يجرى الخالف وراء السالف ، وهو فى نظر نفسه مؤلف
يكتب للأجيال ، وأستاذ يرشد التلاميذ فقد انتقل من
وصف المؤلف إلى وصف الوراق الناسخ الذى لا يعى ما
يقول !

ونحن بالنظر إلى أحوال أبى العلاء مع الناس منذ
وُجِدَ إلى هذا العصر نجد ذأ أطوار ثلاثة فى الطور الأول
وهو طور حياته التى عاشها بينهم نجد محاطا بالتبجيل
والإعظام يأتية التلاميذ من كل فوج فيتلمسون المثالة
بالتلميذة عليه والأخذ عنه ، ومن قدر له أن ينال شيئا
من علمه باهى وافتخر ومضى يذيع فى معشره قاصيا
ودانيا أنه رأى أبا العلاء وسمع منه . ثم إن الكبار من
رجال العلم قد راسلوه وافتخروا برسائله التى كتبها ردا
على رسائلهم وعدوا ذلك شهادة بارتفاع أقدارهم ،
وسمو منازلهم فى دنيا الفكر والأدب والعلم إذ إنهم
حظوا بمراسلة أبى العلاء . ودع عنك العلماء والأدباء
والشعراء الذين يتلمسون مقابله فى منزله الصغير
ليقرءوا عليه بعض الآثار والأشعار فىكون تعليقه بمثابة
التوقيع الحكومى الذى لا يدفع ، دع عنك هؤلاء وانظر
إلى الرؤساء الكبار من ذوى الرئاسة والسلطان ممن كانوا

يتمتعون بالحكم المطلق أمرا ونهيا ، وإعداما واستبقاء
فكلهم يعرف منزلته ويرعى شفاعته ويصفح للمذنبين
بكلمة رجاء ، فقد كان صالح بن مرداس أمير حلب
يعتزم تدمير المعرة بلدة أبي العلاء ، إذ خرج أهلها على
حكمه وأعلنوا فساد سلطانه وسوء تجربره ، وخاف أن
تخذوا البلاد المجاورة حذو أهل المعرة فخف إليها غاضبا
ورماها بالجانيق ، ودافع أهلها ما استطاعوا فلم يثبتوا
ساعة من زمن ، فلما أحس بسوء العاقبة ذهبوا إلى أبي
العلاء يرجونه أن يشفع في أهله إلى صالح بن مرداس ،
ولو لم يكن لأبي العلاء من حسن السمعة
وجهارة الصيت عند ابن مرداس ما توسل به المنكوبون ،
فاستجاب الرجل شهامة وحمية وخرج مع من يقوده إلى
مجلس صالح ، ف قيل له إن الباب رجلا أعمى يقوده
رجل نحيل ويطلب لقاءك فصاح صالح : أبطلوا القتال
فقد جاء أبو العلاء واستيقن أنه شفيع القوم ، فقام
لاستقباله وأجلسه مجلس الضيف وسأله : ألك حاجة ؟
فقال أبو العلاء : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف
القاطع ، لان متنه وخشن حداه ، وكانهار الماتع ، قاط
وسطه ، وطاب أبراده :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

[الأعراف / ١٩٩]

فقال صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء ثم فأكفه يقول :
أنشدنا من شعرك شيئاً نرويه عنك قال ارتجالاً .

تغيببت فى منزلى برهة

مستتر العيب فقيد الحسد

فلما مضى العمر إلا الأقل

وحم لروحي فراق الجسد

بعثت شفيعاً إلى صالح

وذاك من القوم رأى فسد

أيسمع منى سجع الحمام

وأسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبني هذا النفاق

وكم نفقت محنة ماكسد

فقال صالح : بل نحن الذين نسمع منك سجع الحمام ،

وأنت الذى نسمع منه زئير الأسد ثم بخيامه فوضعت

وبأنقاله فرفعت ، فرجع أبو العلاء إلى المعرة وهو ينشد

نجى المعرة بن برائن صالح
رب يداوى كل داء ~~معضل~~
ما كان لى فيها جناح بعوضة
الله ألبسهم جناح تفضل

فالذى لا يجد قومه غيره شفيعا والذى يرعى صالح
الغشوم شفاعته لن يكون فى الناس إلا رجلا ذا مكانة
ومهابة وإجلال أما إذا أشاع عنه بعض الحاسدين تخرصا
واجترأ، فهذا شأن النوايغ فى كل عصر، ولن تضر
عبارة يقولها مثل من قال له : لم تهج إلا الأنبياء
والمرسلين لن تضر الرجل فى محبسه بل هى دليل على
قلة ذوق الضيف وتسامح المضيف حين أطرق ولم يرد .

ولندع قصة صالح ولننظر ما كان من أمره عند وفاته فقد
ارتجت المعرة وماجاورها من القرى عند سماع منعاه ووقف
على قبره أكثر من ثلاثين شاعرا يرثونه، وقد قال بعض
الرواة إنهم ثمانون، والناس جميعا يبكون لفراقه ! ويعلمون
كم خسروا من الزهد والورع والأدب والفضل ! أفىكون هذا
الإجماع على فداحة الخطب، وكبر المصيبة مسوقا لرجل
ملحد زنديق ؟! هذا ما لا يقبله منطق سديد ! ولو شئت أن
أنقل بعضا مما قيل فى رثائه لضاق المجال ! .

فإذا تركنا عصر أبي العلاء إلى ما بعده، وهو عصر
 التراجم التي تجمع كل ما يقال دون تحييص، إذ كان من
 هم المترجم أن يحكى ما سمع ويروى ما قرأ وكل ما
 سمع من غريبة أو قرأ من عجيبة، أسرع إلى تدوينها
 تشويقاً للقارئ واستمالة لوده، في هذا العصر ساءت
 سمعة أبي العلاء بأقلام من كتبوا التاريخ من الوعاظ
 والسمار ورواة الأفاكيه من الإخباريين، وكلما جاءوا
 بالغريب كان لديهم أعجب وأطرب، وأى أعجوبة لديهم
 أطرب من القول بكفر أبي العلاء، واختلاق الأكاذيب
 عن مرقه ونشوزه! وقد ساعدهم على ذلك ما بدر منه
 فى النصف الأول من حياته من تجرؤ لا ينكر وقد رجع
 عنه! ولكنهم يأسفون لرجوعه فيتغاضون عما قال فى
 الإيمان والعقيدة مما يتفق مع الجمهرة وكأنهم يودون لو
 استمر على غلوائه فيجدون أديماً عريضاً لسهامهم
 الطائشة. وأقلامهم الشائنة، ولكن أقواله المؤمنة قد
 سدت عليهم كل سبيل! وقد نقل ابن الوردى عن
 الصاحب كمال الدين بن العديم قوله الذى يجب أن
 يكون مقطع الرأى عن أبى العلاء: «إنه اعتبر من ذم أبا
 العلاء ومن مدحه، فوجد كل من ذمه لم يره ولا صحبه،

وكل من لقيه هو المادح له» وهذا القول هو الذى جعلنى أتحدث عن موقف معاصرى أبى العلاء منه وموقف من جاءوا بعده والموقفان متباعدان !

ولنترك الماضين إلى هذا العصر الراهن فإننا نجد اسم أبى العلاء قد بلغ من الدوى مبلغاً لم يحظ به غير الأفاذ من أمثال المتنبى وأبى تمام وابن الرومى بل إن أبى العلاء قد فاقهم جميعاً عند الباحثين فى الغرب ، حيث ترجمت لهم روائعه فوجدوه الشاعر الوحيد بين شعراء العربية الذى تكلم بلسان العقل وحده فى شئون الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعمران ، وقد ألف الأستاذ عباس محمود العقاد كتابة (رجعة أبى العلاء) مقارنة بين مقالته المعرى ، وبين مقالته فلاسفة أوروبا ، وطار بالمعرى فى هذه الرجعة بين الشرق والغرب ، ليعرض شتى الآراء الحديثة وشتى النظم الاجتماعية السياسة والاقتصادية مستشهداً بما يماثلها من آراء أبى العلاء وبخاصة فى اللزوميات ! وكان الأستاذ الكبير أمين الريحانى قد ترجم إلى الإنجليزية خلاصة وافية من شعر أبى العلاء فى اللزوميات فبهرت القراء هناك ، إذ كانوا لا يعتقدون أن شاعراً عربياً بلغ هذا النضج

الفكرى فى عصره البعيد فسبق غيره من النظراء !
والمكتبة الأدبية المعاصرة حافلة بكتب قيمة خصصت
لأبى العلاء ومنها الكتب الرائعة للأساتذة عبدالعزيز
الميمنى وطه حسين ، وأحمد تيمور ، وسليم الجندى ،
ومارون عبود ، وعباس العقاد ، وأمين الخولى ، وبنت
الشاطىء ، وكامل كيلانى ، وعبدالله العلايلى ، وأمجد
الطرابلسى ، وقد لا أستطيع حصر أسمائهم لضعف
الذاكرة وتعاقب السنين ، هذا إلى غير المؤتمرات الحافلة
التي أقيمت للرجل فى عيدہ الألفى فى مصر والعراق
والشام وسجلت عشرات البحوث الضافية عن الشاعر
الكبير ولن أنسى كلمة رائعة قالها الدكتور عبدالوهاب
عزام فى بحث له عن أبى العلاء ، إذا قرر أن كل أديب
عربى عرف فى هذا العصر كانت له فى حياته فترة
علائية قضاه مستمتعا بآثار المعرى ، وداعية له ؛ لأن
طرافة التفكير عند المعرى قد فاقت كل حد ، وكان
الشباب الناهض إليه أسرع ، وبه أحفل ، وقد صدق حين
قال عن نفسه فى مطلع شبابه :

وقد طار ذكرى فى البلاد فمن لهم

بإخفاء شمس ضوعها متكامل!

مصرع شاعر بطل

تاريخ الأدب العربى يموج بشخصيات كثيرة تتراكم وتزدحم على مر العصور وقد حفلت كتب التراجم بأنباء هذه الشخصيات ولكن طريقة كتابتها قد ضاءت كثيراً من بعض الجهود الفذة التى يمكن أن تكون نقطة ارتكاز لتسجيل بطولة نادرة أو التنبه إلى عبقرية رائعة، وعلى الباحثين أن يتركوا طرقهم المألوفة فى الإمام السريع بالخطوط العريضة دون أن يتعمقوا ما وراءها من أسرار وبواعث، ليقدّموا إلى الناس صوراً حية ذات مقدرة وإبداع.

وسأتحدث اليوم عن شاعر بطل قدم روحه رخيصة فى سبيل مبدئه العربى النبيل، وكان بمصرعه المؤسف مثالا بارزا للصبر والاحتمال، وهو بتاريخه الحافل يصور جزءاً من كفاح مصر العربية فى تحرير الشرق من أوهام الاستعمار الصليبي، وله فى ذلك نظراء وأمثال يعوزنا أن ننقب عن جهادهم الأبي ثم نجلوا أحاديث بطولتهم على الناس فى احتفاء وإجلال.

يظن بعض المؤرخين أن دور مصر فى الكفاح الصليبي قد ابتدأ حين وفدت جيوش نور الدين إلى الكنانة بقيادة أسدالدين شيركوه، وهذا خطأ صريح لأن مصر العربية المسلمة قد تجاوزت هذا الموعد إلى ما قبله بسنوات وسنوات، فقد أتيح لها وزير أبى كفاء يلتهب حماسة وحمية فأزعجه

أن تفد الجيوش الصليبية لتستحل مدن الشرق وتستبد بمقدسات العرب والمسلمين دون أن تكون عاصمة الفاطميين في طليعة المدافعين، فسير الجيوش برا وبحرا إلى فلسطين وسوريا لمداهمة الغاصبين، وأحرز انتصارات هائلة، كان لها دويها الرنان في آذان الأعداء وأريجها العطر في صفحات التاريخ ودواوين الشعراء، ذلك الوزير الكفاء الأبى هو الصالح طلائع بن زريك، وقد لقب بأبى الغارات لكثرة حملاته المتعاقبة على الأعداء ١.

كان الوزير - على شجاعته الماهرة وإدارته الحازمة - كاتباً شاعراً يهش للأدباء ويجمعهم حوله فتألفت في عصره نجوم كثيرة من أفذاذ الكتاب وبارعى الشعراء، حتى أن العماد الأصفهاني في كتابه: «الخريدة» قد أدار جل تراجمه على الوزير وأشياعه، فأكثر من تحدث عنهم من الأدباء كانوا ممن يلوذون تجاهه ويستعينون بخيره، وقد أفردت كتب خاصة بتسجيل مآثره، ولو أتيت له أن يعمر في الوزارة طويلاً لقاد الكنانة إلى النصر السريع ولكفى التاريخ جهوداً شاقة قام بها في إثره أبطال هذه الحرب الطاحنة ذات الحملات السبع ١١

ومهما قيل في فضل الرجل على الأدب والشعر فإن أكبر

فضله فى ميزان التاريخ هو ما أشعله من الحماسة المتأججة فى النفوس، فقد أعلن التعبئة العامة فى مصر وهى الأذهان إلى خطر هؤلاء الغزاة العتاة، ودعا الشعراء إلى خوض المعركة، فأخذوا يصورون ما يتوقع للإسلام من مآزق لو علت راية الصليبيين فى البقاع، وكان إذا رجع من بعض الغزوات الظافرة جلس فى حفلات الاستقبال يستمع إلى قصائد الحرب وترانيم الشجاعة، حتى أصبح القول فى الغزو الصليبي موضوعا جليل الخطر قوى الصلة بنفوس الشعراء، ولعل المهذب بن الزبير كان أعظم من صور وقائع ابن زريك من مادحيه فقد أكثر وأطال فى إجابة وامتناع، بل إن الوزير نفسه قد أطلق قصائده الحماسية فى هذا المجال حين أخذ يرسل إلى نور الدين محمود توسلاته الصادقة أن يقف إلى جانبه، ولم يكن نور الدين فى حاجة إلى من يتوسل إليه، وهو البطل المثالى الشجاع، ولكن اختلاف وجهات النظر بين البطلين فى شأن المعاهدات الحربية والهدنة المتكررة كان مجال المزاخنة والمجاذبة! ولكل بطل منحاه فرما اقتضت حوادث القتال فى الجنوب ما لا تقتضيه فى الشمال، وكم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب من مخاطر.

هذه الروح المتحمسة التى بثها الوزير طلائع بن زريك قد

وجدت صداها لدى شاعر كبير مرموق هو الرشيد أحمد بن الزبير الغساني فأخلص للفكرة الإسلامية إخلاص الأبى الغيور، وظل بشعره ونشره تارة وسيفه وكفه تارات يعمل على مناجزة الصليبيين في كل مجال حتى قدم روحه رخيصة في ذات الله وارتفع إلى ذروة الشهداء لقد كان من نكد الطالع على البلاد أن يتولى الوزارة بعد موت الصالح، وقتل العادل رجل انتهازي ماهر، لا يفكر في غير نفسه، هو شاور ابن جبر، فلم يجعل من همه أن يستأصل شأفة الفرنجة من الشرق بل جعل تمكنه من الوزارة مأربه الأوحده سالكا أقذر المسالك التي يستعين بها على السيطرة والحكم، فأغضب الصغير والكبير، وقد استطاع أن يلبس الحق بالباطل حيناً في أنظار السذج من العامة، ولكنه افتضح افتضاحاً مخزياً حين جد الجدد وصرح الشر عن الطيب والخبث.

لقد استنجد بنور الدين بادئ ذي بدء متظاهراً بالغيرة والحمية، والحرص الأكيد على استئصال الفرنجة فما كادت جيوش نور الدين تتقدم إلى بلبيس حتى استعان عليهم بالفرنجة وأجبر عساكره وأتباعه على محاربة ذوي دينه ممن جاء بهم لحماية الإسلام في مصر، وكانت غلبة الشعب عليه شديدة عنيفة إذ أن المجاهدين من ذوي الأنفة قد التجئوا

إلى أسد الدين ووقفوا معه صفا واحدا أمام الوزير الخائن
وسادته الدخلاء وكان الرشيد الأسواني أحد هؤلاء الذين
أشعلوا نار الحمية في النفوس وهاجموا الطاغية المستبد
هجومًا زعزع مكانته حتى نجا أسد الدين ورجع إلى الشام،
ولكن إلى حين .

أخذ شاوري بحث عن هؤلاء الذين ألجأوا الشعب عليه،
فوقعت في يده كتب خطها الرشيد بن الزبير إلى أصحابه
المتفرقين في ربوع البلاد يدعوهم إلى الثورة على الوزير
الخائن، ومعاضدة جيش نور الدين في مأزقه، فهو جيش
العرب والمسلمين، ولن تقوم لمصر قائمة إذا انخذلت هذه
الكتائب المكافحة، وقد تركت ربوعها في الشام، وخفت إلى
مصر لتلقى المعونة والتأييد ليحاربها الأوغاد بسلاح الغدر
والخيانة ممن لا يشعرون بيقظة الإيمان ومحاسبة الضمير
وكانت العبارات النارية التي خطها الرشيد مما يشعل النفوس
حفيظة وحقدًا فثارت ثائرة شاوري على الشاعر وأخذ يبحث
عنه في كل مكان فلم يهتد إليه، ثم عثر على شقيقه المذهب
فحبسه وسامه سوء العذاب في سجنه إذ كان ولاءه للجيش
العربي مما لا يخفى على أحد فاهتبلها الخائن الباطش فرصة
مواتية ليشفى نفسه قليلا منه ومن أخيه !!

لم يكن الرشيد بالرجل السهل حتى يعثر عليه شاور في وقت قريب، بل كان حذراً لبقاً في اختفائه، ولا غرو فالشاعر داهية محنك جاب البلاد، وجاوز مصر إلى اليمن في سفارات سياسية كثيرة، وهو بعد منجم فقيه فلكى طبيب مهندس وله في كل مكان يؤمه تلاميذ يقدرون علمه ويعرفون مكانه، فهم أحرص الناس على حياته، هذا غير ما نعلمه من حب الناس لأبطال الحرية ودعاتها، وقد اشتهر الرشيد بثورته على شاور فحل بذلك محل الإجلال والتقدير، وكأني به وقد أصبح في تنكره موقد ثورة، يشعل اللهيب في كل مكان يؤمه وهو بذلك يؤدي رسالة قوية أتاحتها له شاور من حيث لا يريد، فلو تركه وشأنه ما كان لاختفائه هذا النفاذ الغريب، وقد رجعت عيون الوزير إليه خائبة فاشلة تعلن بأسها من العثر عليه، فيتوعد ويهيج!

على أن المذهب أخا الرشيد قد استطاع أن يتوجه من محبسه بقصائده إلى شجاع بن شاور راجياً أن يستعطف قلب أبيه، فيمن عليه بالحرية، وكان في شجاع همة ومروءة، فهو على نقیض أبيه، يسوءه أن يتورط والده في مخالفة الفرنجة فيبذل أقصى الجهود ليوحد الجبهة العربية، وكم تعاضمه أن تصبح صورة أبيه شائهة ممسوخة لدى الناس، حتى أنه جاهر

بمخالفته فى أخرج مآزقه مؤثرا عزة البلاد واندحار الصليبيين
مهما قذفت الحوادث بأبيه إلى الهاوية، هذا النجل الباسل
كان يعطف على ضحايا شاور من المتحمسين البسلاء الذين
وقفوا فى وجه مكايده اللئيمة!! فحين التجأ إليه المهذب
سعى فى خلاصه وبذل جهده الجاهد حتى رد عليه هدوءه
وأمنه، فخرج إلى فضاء الحرية مع المنتصرين، كما بذل
مسعاه فى الكف عن الشاعر الطريد، ولكن حقد شاور على
الرشيد قد أحبط رجاء شجاع فظل هائما تتقاذفه القرى
والمدن حتى حتمت عليه الكوارث الغاشية أن ينهى اختفائه
ليظهر فى ميدان البطولة من جديد، لقد كان الرشيد يوقن أن
الفرنجية يطمعون فى مصر وأنهم لن يتخلوا عن زمامها متى
أتيح لهم أن يتمكنوا منه وقد وجدوا فى شاور مركباً يعتلون
إلى أغراضهم الآثمة، فيمضى بهم حيث يتفنون، ونور الدين
بالشام لا يقر قراره فهو حريص أن ينقذ بلاد الإسلام عامة من
شرور هؤلاء الغاصبين لذلك أسرع بكتائبه إلى الميدان من
جديد، وظهر أسد الدين مرة ثانية ليعمل على تطهير البلاد
من الصليبيين، فدارت الحرب العنيفة بين شاور والفرنجية من
ناحية وبين أسد الدين وأبناء البلاد من ناحية ثانية حتى تمكن
الجيش الإسلامى من الاستيلاء على الجيزة وتقدم إلى الصعيد

فقابله الشعب المصرى بالترحيب ثم انشنت بعض كتائبه إلى الإسكندرية فكان صلاح الدين بطلها المعلا، وقد خاف شاور أن يصبح الثغر ركيزة هامة لجيش نور الدين فانكفأ مع سادته الفرنجة إلى محاصرته، وفوجئ صلاح الدين بالحصار فاجتمع حوله الشعب الاسكندرى، وظهر الرشيد فجأة فى الميدان فكان وهو القاضى العالم الشيخ ايركب الجواد ويمتشق السيف ويحارب بين يديه فإذا أظلم الليل اتجه إلى المساجد فجعلها منبراً للدعاية وأخذ يجمع القلوب حول صلاح الدين ويذكر من آيات وأحداث القتال ما يذكى الحمية فى القلوب، حتى استطاعت الإسكندرية بصيحاته الجريئة أن تكون على قلب رجل واحد مع صلاح الدين! وكان هذا الموقف البارز للشاعر حلقة جديدة تضاف إلى سلسلة بطولاته الرائعة، فقرعنا بعنا بجهاده واستشعر برد الراحة حين رأى نفسه فى طليعة الصفوف مع المجاهدين وأخذ يتطلع إلى يوم قريب تنجاب فيه عن الإسلام ظلمات الغرب ودواهيته.. دارت الأيام، واضطر جيش أسد الدين إلى مغادرة البلاد مع الفرنجة مراعاة لاتفاق أريد به إنقاذ الموقف مما يتعاوره من جواذب الدفاع والهجوم.. وخلا الميدان برهة مؤقتة لشاور بن مجير وقد جاءه ما قام به الرشيد من بطولة خارقة فى حرب

الإسكندرية، فوجه اهتمامه إلى القبض عليه وأعلن الجوائز
الغالية لمن يقوده إليه، وكان الأقدار شاءت للشاعر أن ينهى
كفاحه الباسل، فيساق إلى الوزير الحاقد فأمر بإشهاره على
جمل ووضع على رأسه طرطوراً ظنه مدعاة السخر والهزأة
من الناس ووراءه شرطى يضربه بالعصا وينال من وجهه
باللطم وقفاه بالصفع، والشاعر يتمتم بالقرآن ويردد
الشهادة فى حسرة كظيمة ا قال يا قوت : فلما وصل به إلى
الشناقة جعل يقول لمن سيقوم بإعدامه عجل، لا رغبة
للكريم فى الحياة بعد هذه الحال ثم صلب أياماً، ووريت
جثته فى التراب حيث صلب، وكان من انتقام الأقدار أن
يصرع شاور بعد أمد قليل ويدفن حيث دفن الرشيد وشتان
بين مصرعين يفضى أحدهما بصاحبه إلى دار السلام
ويقذف به الآخر إلى هاوية السعير، تلك بطولة رائعة لها
نظائرها - لا محالة- فيما نقرؤه من كتب التراجم الأدبية،
وهأنذا أشير إليها لتنفعنا الآن فى معركة القومية العربية،
أملا أن يتجرد فريق من أذبائنا لكتابة روائع هؤلاء الأبطال
كتابة فنية توضح مشاهد البطل ومواقفه وتلقى الظلال على
ملامحه وسماته مستشفة خلجات السرائر ونبضات الدم
ليكون من ذلك كله سجل رائع للأمجاد العربية، وإلياذة

رائعة للبطولة والأبطال ، وإلا فكيف يجوز لنا أن نهتم مثلاً بشاعر معاصر للرشيد كابن قلاقس فنعرض مناحي أدبه ونفصل أغراض شعره وعناصر أسلوبه ثم نغفل الرشيد الأسواني مع أن ابن قلاقس قد ضعف عن أن يقوم بجهد ما في معركة الحروب الصليبية ، بل أخذ يمدح شاور بن مجير ويذم أسد الدين في قصائد توحى بالوصولية المحترقة ، والانتهازية الخسيسة . ولئن جاز في مضممار البحث الأدبي أن يخلد شعر ابن قلاقس وتنوع دارساته فمن الواجب أن نفصل حيوات الرشيد والمهذب والعماد وأضرابهم ممن أسهموا أدباً وعملاً في إفادة القومية العربية وإذكاء الشعور الديني .

ويمكننا أن نحكم على الرشيد بعد أن أوضحنا موقفه البطولي الرائع بأنه كان شاعراً قاضياً عالماً كاتباً وقد جره تنوع معارفه واختلاف ثماره إلى الإقلال من النظم ، حيث تفوق عليه أخوه في شعره مما جعل نقاد عصره يقولون الرشيد أعلم من المهذب والمهذب أشعر منه . على أن عزة نفسه تظهر بوضوح في أكثر من نظم ، كأن يقول :

إذا ما نَبَتَ بالحر دارٌ بوَدها

ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم

وهبته بها صبا ألم يدر أنه
سيزعجه منها الحمام على رغم
وله مع أخيه مصارحات رائعة ، فقد أرسل إليه المهذب حين
كان مغتربا باليمن قصيدة رائعة كان مطلعها :
يا ربع أين ترى الأحبة يمموا
هل أنجدوا من بعدنا أو اتهموا
فرد عليه بقصيدة ماثلة كان ابتداؤها :
رحلوا فلا خلت المنازل منهمو
ونأوا فلا سلت الجوانح عنهمو
وفى القصيدتين مجال بديع للموازنة والتحليل وأقرب
مرجع لهما ياقوت فليقرأهما من يرى في أدب هذا العصر
بعض الاستمتاع .

من صفحات التاريخ
إشكاف السهروردي الشهيد

أجل، هو الفيلسوف الشاب الشهيد وقد خاف أعداؤه أن يسجل له التاريخ استشهاده العظيم، فهبوا يصفونه بالفيلسوف القتل! كيلا يكون مصرعه المثير مثلاً للبطولة الخارقة، والعزيمة الأبية ولكن هيهات! فقد ذهب خصومه زبداً رابياً في خضم الزمن، ومن بقيت له آثاره من حديث تلك سيرته مشفوعة بالاستغفار، أما الرجل فقد نزل من قمم التاريخ في ذروة سامقة ينظر الناس إلى علوها الشاهق، من سفوحهم المتطامنة، فيروعهم. هذا الارتفاع البعيد، ويقارنون بين مكانته السالفة في دنيا الرعاع ومنزلته اللاحقة في رحاب الزمن، فيعلمون أن التاريخ ناقد بصير لا تخذعه الأراجيف الموهومة بل يزن الناس متجرداً من حزازة المنافسة وغلواء الغيرة، ثم يهيئ لكل موضعه اللائق بموهبته وكفايته.

وقد علا مكان الفيلسوف من التاريخ بحيث تنحنى له الرؤوس خاشعة في محراب الألمعية المتوقدة، والنبوغ الوهاج، بل إن مصرعه الفاجع قد أضفى على سيرته لألاء ساطعاً وغمر آثاره العلمية بعبير منعش يسرى في الأرواح الظامئة مسرى السلاف في الأعطاف. لقد كانت مواهب الفيلسوف مشار الروعة والعجب ولم لا؟ وقد رزق ذهنها

لما أحاذرك به علوما كثيرة متنوعة فخاض في الفلسفة والأصول وعالج مسائل الطب والكيمياء والجبر، كما أوتى لساناً طلقاً ساحراً بارع الحجة قوى الدليل، وترك من المؤلفات - على قصر عمره - مباحث كثيرة تشرح أدق المسائل وتتخذ من الفلسفة والتصوف وعلم الكلام سبلاً مختلفة للحديث، ولو بسط له في العيش لاحتل في مجال التفكير الإنساني قاطبة مكان القادة الموجهين، ولكن مصباحه المتوهج قد انطفأ فجأة فخبأ الضوء اللامع وغاب الشعاع النفاذ !

لقد انطفأ المصباح المتوهج عقب مأساة حزينة، هي مأساة المفكر الحى المتوثب، يسير إنتاجه في الكون مسير الشمس، فيعشى العيون ويثير كوامن الحقد في نفوس لا تقدر مواهب الله في مخلوقاته، فتتجمع وتكتل لتقذف التهم الآثمة، وتعدد المفتريات المجحفة، ثم تتحشد وتتوالت لتقيم قيامة العامة، ويموج الحشد الأبله في مظاهرة صاخبة، فيثير الاضطراب والبلبله، ويقيم الدينا ويقعدها على رأس المفكر الحى الوائب، ثم تحين المأساة فيجازى الرجل بما يجازى به القتل من المجرمين والفجرة من المتوحشين !! وإذا ذاك تهدأ العاصفة، وينطفئ الحقد

المتوقد، ثم يتعاطم الصغار المهازيل ويشمخون !! بعد أن
خلا الميدان العلمى من فارسه المحجل، وبطله العظيم .

وقداعتدنا أن نسمع من الكاتبين، كثيراً عن استشهاد
الفيلسوف الكبير سقراط، وما قوبل به من خيانة وعقوق
فهم يسوقونه مثلاً رائعاً للمفكر الحر، ويذكرون كيف
قضى ليلته الأخيرة فى جدل علمى ممتع حول الروح
والخلود والنعيم .

ومن يدرس استشهاد السهروردي يره سقراط آخر،
يقدم على الموت ببسالة فلا يأسى على انطفاء مصباحه
ونضوب معينه فى عنفوان الشباب، ومقتبل الحياة مع أن
الفيلسوف الإغريقى قد جاوز السبعين، ورأى فى عمره
المديد ما بغض إليه الحياة والأحياء، أما استخفاف
السهروردي بالموت فى نضارة العمر وربيع الشباب فمثل
رائع لا يقاس بنظير، إذا قورن بما كان يرتجى منه فى ميدان
النبوغ المبكر، وإذا درست شخصيته النادرة من خلال
مؤلفاته، فعلم ما كان يزدحم فى صدره من آمال موروقة،
تقصفت أعوادها وبترت سيقانها، تحت إعصار رهيب من
الظلم والجحود !!

نشأ يحيى بن حبش السهروردي ببلدة من أعمال

أذربيجان، بعراق العجم، وقد شب طموحا للمعرفة، مشغولاً بالدراسة والتحليل، فتلقى العلم «بالمراغة» ودرس الحكمة والفقه على أستاذه العظيم مجد الدين الجبلى، الفقيه الأصولي المتكلم أستاذ الفخر الرازى، فانتفع بكثير من آرائه وتوجيهه ودرس معه العلوم النقلية دراسة شاملة ولكنه تطلع إلى الفلسفة والمنطق، فضاقت المراغة بطموحه ولم يعد أستاذه يشبع نهمه العقلى الطامح فارتحل إلى أصبهان يبحث عن أساتذة المنطق، وينتقل فى حلقات الفلسفة حتى انفتق نبوغه عن ذهن متألق وضاء، فأعجب به أستاذه «الطهير الفارسى» واختصه بأسراره، فقرأ عليه كتاب البصائر فى المنطق، وترجم رسالة الطير إلى اللسان الفارسى!

وامتزجت فى تفكيره دراسة العلوم النقلية بالعقلية معاً فخلقت منه فيلسوفاً من طراز خاص، كما كان للتأمل الباطنى والاستشفاف الروحى أمواج ثائره تصطبغ فى خاطره فخلط الفلسفة بالتصوف، وبنى مذهبه الصوفى على نظرية «الإشراق» اليونانية وقد توسع كثيراً فرجع بتصوفه إلى عناصر أجنبية تتضمن لقاحاً متشعب المنحى والاتجاه، وانتشر له دوى فى مجتمعه، فخطب وتصوف

وتفلسف، ونظم الشعر وخاض في الجدل والفقه الأصول،
وأصبح بثقافته الواسعة يمثل جيلاً كاملاً من العلماء!!
وقد ضاقت أصبهان بالرجل أيضاً!! فرحل إلى حلب
تسبقة شهرته الواسعة ومؤلفاته العديدة، فعرف فضله
عالم كبير من جلة علمائها هو الشيخ افتخار الدين شيخ
المدرسة العلمية بها، فقربه واجتباه ونقل إلى الملك
الظاهر مديحه وإطراءه، فاتصل به السهروردي، وتوثقت
الصلة بين السلطان والفيلسوف، فأضافت إلى مجده
العلمي مجداً آخر.

ونحن نعلم أن مؤلفي الفلسفة يقفون كثيراً موقف
المؤرخين فيسجلون في مؤلفاتهم ما سبق تداوله من الآراء
حقاً كان أو باطلاً، ليحفظوا التراث الفلسفي من ناحية،
وليراقبوا تطوره العقلي من ناحية ثانية، وقد يكون بعض
هذا التراث باطلاً يظهر تهافته، ولكنه إحدى حلقات
البحث الفلسفي، وله ثقله الهام في ميزان التطور
المذهبي. ومؤلف فيلسوف كالسهروردي لابد أن يذكر
بعض هذه الفلسفات التي تناقض الدين لتأخذ مكانها
الزمني في بحثه واستنتاجه، وقد يعقب عليها بالنقض
والتجريح، وقد يدعها تصيح بفسادها الواضح في أذن

القارئ البصير !! وهنا مريض الخطر، ومكان الانتقام، فقد تصيد المفرضون من آراء الفلاسفة ما ينهض بحجتهم في ملأ لا يفهمون النثر الأدبي، بله المنطق الفلسفي النظري، ثم ذهبوا يوضحونه توضيحاً يشهد بالإثم والعقوق، وقد تم لهم ما أرادوه، ووقف المفكر اللامع ينظر مدهوشاً إلى قطيع يساق ويتحدر إلى الصخب والجلبة دون تمييز صائب أو فقه بصير.

ونحن نتسائل فنقول: ما الباب الأصيل لفلسفة الرجل، وعلى أي شيء بنى مذهبه الروحي؟ فإذا أردنا الجواب فلن نعالج بالبيان الأدبي مذهباً فلسفياً تجنى على حقائقه العلمية نصاعة الأسلوب ورونق الديباجة، ولكننا ننقل عن صاحب كشف الظنون حقيقة مذهب الرجل إذ يقول:

«إن للدين والفلسفة موضوعاً واحداً وهو الخير الأسمى، الذي هو فضيلة وسعادة معاً، ومعرفة هذا الخير الأسمى، تتضمن معرفة الله وصفاته وتنزيهه، وهذه المعرفة يمكن أن تحصل من طريقتين: إحداهما طريق النظر وثانيتهما: طريق الزهد والذوق الصوفي.

والذين يسلكون الطريق الثاني إذا كانوا يعتقدون

الإسلام ويستغلون تعاليمه على أوجه الاستغلال فهم الصوفية . أما إذا لم يكونوا كذلك ، وكانوا يصطنعون الذوق ، ويأتون فى مذاهبهم بما يتنافى وأحكام الشرع فهم الإشراقيون .

هذه الآراء وأمثالها كانت شائعة معروفة فى الأوساط العلمية ، وقد جاهر كثير من المتصوفة فى الإسلام بآراء كانت تثير مناقشات حامية بين الفقهاء والمتصوفة من ناحية عقلية ، وبين المتكلمين والمتصوفة من ناحية عقلية ، ولئن هوجم الشبلى والبسطامى وابن الفارض والجنيد وسهل التسترى وأبو الحسن الشاذلى على اختلاف مشاربهم الصوفية ، فقد كان لهم - مع خصومهم - أعوان يذبون عنهم ويحوظون مواقفهم بالمؤازرة ، ولم يقتل من المتصوفة على كثرة شطحاتهم الغربية غير عظيمين كبيرين ، هما : الحلاج والسهروردى ، وكلا الرجلين أعدم متهما بالكفر والمروق فى منطق العامة والرؤساء ولكن التاريخ يذكر بأسانيده الثابتة أن الخداع السياسى مع الحلاج ، والحقد الشخصى مع السهروردى كانا - وحدهما - الباعث على الاغتيال والإعدام ، دون نظر إلى رأى شاذ ، أو تصوف جامع شمس .

على أن السهروردي لم يعدم من أعوان الحق فقهاء يظهرونه في محنته إلا أن أصواتهم الخافتة قد تلاشت في محيط يزخر بلجب العامة، وصيحات الرعاع، فتطايرت الأنباء إلى صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة معلنة أن ولده الملك الظاهر قد اجتبى فيلسوفاً ملحداً زنديقاً! وأن مظاهرات الاحتجاج تنهض بين الحين والآخر في آفاق حلب، وأراد السلطان الغيور أن يطفئ اللهب المشتعل فأمر ولده بمحاكمة الفيلسوف وإبعاده وقد اطمأن الملك الظاهر إلى علم صاحبه وقوة منطقة، فأمر بتشكيل محكمة علمية.

وسار الفيلسوف إلى المحاكمة مرفوع الرأس موفور الثقة، وقد ظن أن النقاش سيدور في مسألة شائكة، مما أثاره في بعض كتبه الفلسفية كحكمة الإشراق أو هياكل النور أو المعارج، أو اللوحة أو المطارحات، أو المقامات أو الألواح إلى غير هذه الكنوز التي تضمنت أتمن ما وعاه العقل الإنساني من معان، وقد سطرها صاحبها في سن مبكرة فأدهش وراع!! هذه النفائس الخالدة التي تقف عقول الكثرة الكاثرة من المثقفين إزاءها كما يقف الطفل الصغير على ساحل محيط جياش اللج دفاق الموج. وقد

كان أعضاء المحاكم أطفالاً، فلم يخوضوا شبراً من المحيط،
ولوا أعناقهم عن الموج الجائش والطوفان الغامر،
وتناظروا فى مسألة هينة يكفى الفصل فيها بكلمات
يسيرة، لو عدل الحاكم المغرض، فأنصف البرئ؟!!

قال رئيس المحاكمة: لقد قلت فى بعض تصانيفك: إن
الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل.

فقال السهروردي: لا حد لقوة الله فإن القادر إذا أراد
شيئاً لا يمتنع عليه.

قال الرئيس: إن الله قادر على كل شئ إلا على خلق
نبي فيستحيل.

فأجاب الفيلسوف: أيستحيل الخلق مطلقاً أم لا؟

ومافاه المتهم بهذا السؤال حتى قامت عليه القيامة؟
وصاح الصائحون:

كفر الرجل كفر الزنديق!! مع أن توجيه السؤال يشعر
بما يفض النزاع ويحسم الخلاف فالسهروردي يريد أن
يقول إن إمكان الخلق جائز بالقوة لا بالفعل.

وهذا ما عناه بالإطلاق وعدمه، ومن يلم بقليل من علم
المنطق يدرك أن خلق النبي بالقوة أمر لا جدل فيه، ولكن

هكذا تعشى العيون عن الصواب .

فأى نقاش هذا الذى يبدئون فيه ويعيدون ؟ ثم يصدر
الحكم بإعدام الفيلسوف أو يحرصون على أن يوصف
بالمقتول كيلا يتطرق استشهاده على ذهن يحاول
الإنصاف .

لقد اضطر الملك الظاهر إلى تنفيذ الحكم طاعة لأمر
والده، وترك الفيلسوف يختار ميتته بإرادته ، فماذا صنع
المسكين ؟

لقد اختار أن تقفل عليه حجرته فى محبسه الدامس ،
ويترك بدون طعام أو شراب ، حتى يموت صبراً فيهرأ
الجوع والظماً أحشاءه الطاوية بمثل الخناجر المسمومة
ساعات أية ساعات .. فيالها من ميتة قاسية يختارها
متصوف زاهد ألف المجاهدة والحرمان ، وتدرّب على الجوع
والظماً مرتفعاً بروحه فوق مطالب الجسد ، ورغائب
الغريزة ، ليخلص من الشوائب والأثقال ، لقد اختار
سقراط قبله السم العاجل ليلفظ أنفاسه فى لحظات ، أما
السهرورودى فقد آثر أن يتعذب عذاباً بطيئاً يمتد أيام
وليال فيصل إلى مثله الأعلى وقد خلع عنه أوضاره
المهلكات .

لقد حاول الفقهاء تشويه عقيدته - في مباحثهم - بعد مصرعه ولكنه وجد من التاريخ إنصافاً حميداً، فهذا هو ذا صاحب روضات الجنبات يقول عنه:

«الشيخ المعظم، والفيلسوف المكرم، العالم الرباني، والمتأله الروحاني، كان في المكاشفات الربانية أمة، والمشاهدات الروحانية نهاية.

كما يقول صاحب «طبقات الأطباء» عنه: كان أوحده زمانه في العلوم والحكمة جامعاً للعلوم الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة، ولكن كان علمه أكثر من عقله».

ويقول ياقوت: «كان السهروردي فقيهاً أصولياً أديباً شاعراً، حكيماً نظاراً، ولم يناظر مناظراً إلا أفحمه.

وقد أخذ حظاً وافراً من دراسة المستشرقين، فعرضوا مضائق حياته وحللوا عناصر مذهبه، وناقشوا مقدمات فلسفته، ولكن بعضهم يسير بالفروض المحتملة إلى غاية مخطئة، فيزعم «فون كريمير» و«هورتن» أن الرجل كان يعتنق المذهب الباطني بدليل قوله في مقدمة حكمة الإشراق: «العالم ما خلا قط عن الحكمة وعن شخص قائم بها، عنده الحجج والبيانات».

ونحن نرى أن هذا الزعم لا يستند إلى دليل صحيح، فلو كان الرجل باطنياً لما احتاج الفقهاء إلى تأليب الجمهور عليه في زمان صلاح الدين الذى تعقب الباطنيين تعقباً ماحقاً. بل كانت باطنيته - إن صحت - سبباً هيناً فى استئصال شأفته دون مناظرة ومحاكمة وجدل، ولم نسمع أحداً من الفقهاء قد اتهمه بذلك، أما هذا النص المأخوذ من كتابه فلا يعنى غير اتصال الأبحاث الفكرية والحقائق الخالدة وانتقالها من جيل إلى جيل على يد العلماء، وهو بذلك يقصد نفسه مع من سبقه من الفلاسفة، من لون سقراط، فكيف نحمل على الرجل ادعاءات جديدة!! غير ما وجه إليه من افتراء.

لقد كان الفيسلوف متعالياً متعاضماً وهذا مجال النقد فى خلقه، ولعله قاس معاصريه من الفقهاء بمقياس اطلاعه، فلم يلووا على شئ!! وما ورد عنه من قول للآمدى: «لقد رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر كله أو ملكت الأرض» فلا يخرج عن الجواز الدال على سعة العلم، وغزارة المادة. وللصوفية فى كل العصور رموز مبهمة، وإشارات غامضة تتطلب الإيضاح، إذ يذهبون مع الألفاظ مذهباً لا يقتضيه مدلولها اللغوى الصريح لا سيما

فيما يتعلق بالذات العلية، حيث تتجه سهام النقد والتجريح. وقد قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى الشافعي في فتواه عن عقيدة ابن الفارض: «يحمل كلام هذا العارف - رحمه الله ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل طريقته، إذ أن اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الإصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله، ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات التائية من القول بالحلول والاتحاد، فإنه ليس من ذلك فى شئ!! وهذا يصدر عن العارف إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان! بحيث تضحل ذاته فى ذاته، وصفاته فى صفاته، ويغيب عما سواه».

ونحن نقول هل يسع عمر بن الفارض ما لا يسع السهروردي، فيعترف للأول بالإمامة الروحية، ويتوافد الملوك والسلاطين على موكبهِ، بينما يلقى الثانى حتفه فى ظلمات الجحود والكفران، وإذا جاز ذلك فى قوم ملأت قلوبهم الحزازات والأحقاد، أفيجوز أن ينتقل إلى باحات التاريخ!! وهو الذى يقوم المعوج، ويمحص الحق ويدحض الأكاذيب!!

إِنصاف بطل باسل
محمد كريم

كان تداعى المعانى وحده صاحب الفضل فى تحرير هذا البحث ، فقد كنت أقرأ الجزء الثانى من كتاب «منوعات» الذى أخرجه الدكتور العالم محمد كامل حسين ، ورأيت فى ص ٤٤ يتحدث عن الأستاذ أحمد حافظ عوض حين شغل كرسيه عضواً فى مجمع اللغة العربية بعد وفاته فيقول : «إذا كان الأستاذ حافظ عوض قد شب فى عصر لا يعد خير عصور الحياة الفكرية فى مصر ، وإذا كانت آثاره الأدبية - وهى وحدها التى تعيننا هنا - لا تخلو مما يدل على كثير من صفات ذلك العهد ، فإن ذلك لا يعد عيباً فيه ولا نقصاً ، فحسب المرء أن تكون آثاره فى ميدان الفكر صورة صادقة واضحة للعصر الذى يعيش فيه ، وأن آثار سلفى لكذلك ، فهى صورة للعصر الذى شب فيه ، لا الذى انتهى إليه ، فيها تخطب الذين يلتمسون أسلوباً جديداً ، وتعثر الذين يتحسسون منهجاً غير مألوف» .

قرأت هذا الكلام فسبق ذهنى فجأة إلى كتاب فتح مصر الحديث الذى أصدره أحمد حافظ عوض سنة ١٩٥٢ عن حملة نابليون على مصر ، واحتفلت به الدوائر الصحفية والأدبية احتلافاً يناسب مركز مؤلفه كرجل سياسة وصحافة وأدب ! حتى قال فيه أحمد شوقي قصيدة رنانة يوم كان

شعراء مصر يظنون تقريظ الكتب إحدى موضوعات الشعر ، فهو شبيه بزيارة الخديوى مدينة طنطا أو افتتاح ملجأ الأيتام مثلاً ! هذا الكتاب قرأته قديماً ، ولمست فيه تحليلاً شاملاً لبعض الغوامض الخافية فى تاريخنا القريب ، كما لمست فيه أيضاً اندفاعاً متطرفاً فى بعض الأحكام الجائرة ، ولا أدرى لماذا تذكرت السيد محمد كريم محافظ الاسكندرية حينئذ بالذات ، فقد كان أحد الأبطال المخلصين الذين قسا عليهم المؤلف الكبير دون موجب ، فلا يكاد يمر حديثه حتى يشويه الكاتب بسياطه ، حتى موقف استشهاد البطولى كان مثار هزء بالرجل وهو بعد جدير بالتقدير والإجلال وقد يدهشك أن تجد أحمد حافظ عوض يقول فى أول حديث له عن السيد محمد كريم هذه السطور ص ٩٧ : «إلا أنه لما أنزلت الجنود الفرنسية فى البر ليلاً ، فى تلك الليلة القمراء أسرع بدوى على فرسه بالسير إلى الإسكندرية وأبلغ السيد محمد كريم .. ومن يدرى كيف كان وأين كان فى تلك الساعة مع سراريه وإخوانه على نحو ما ألف أهل ذلك الزمن من الترف والنعيم واللغو .. »

ولا أدرى كيف حكم حافظ عوض على الرجل بهذا الترف الماجن العاثر ، المتقلب بين الجوارى والغلمان ! وهو بعد لم

يكن والياً تركيا، أو أحد أمراء الممالك لعهدده ممن اشتهروا
بالترف الخليع ! ولكنه رجل شعبي ترقى بكدحه وعرقه حتى
وصل إلى ما لم يصل إليه مصرى مضطهد مسكين !

ثم تحين مناسبة أخرى يقف فيها السيد محمد كريم موقفاً
بطولياً إذ يتصل بالقاهرة ليخبر أولى الأمر بتحركات
الفرنسيين، ويدعوا الممالك إلى استرداد الإسكندرية، وهذا
عمل شهم من شجاع وطنى يسوءه أن تتفرق الجهود فلا
تتجمع على محاربة العدو الغازى الفاتح ! ولكن مؤلف
الكتاب وحده يراه عملاً دنيئاً ! إذ لا يجوز لمحمد كريم أن
يخرج على نابليون بعد أن تلطف به وأبقاه حاكماً على
المدينة وأنت تدهش كثيراً حين تجد أن أحمد حافظ يقول
ص ١١٤ :

« ولكن السيد محمد كريم هذا على الرغم من هذه المعاملة
الحسنة وتلطف نابليون فى مخاطبته وثقته به، لم يحفظ
للفرنسيين حرمة ولم يرع لهم عهداً وكان كعادة أبناء جنسه
وزمنه وكعادة أبناء وطنه إلى وقتنا هذا لا يثبتون على رأى
واحد، إذ بينما هم مع هؤلاء إذ هم مع أولئك وعذرهم فى
هذا قصر نظرهم من جهة، وخوفهم من التقلبات من جهة
أخرى زيادة عما ربوا عليه من أثر الذلة والمسكنة وضعف

الإرادة ، قد وجد الفرنسيون معه بعد ذلك مكاتبات بعث بها من وراء ظهورهم إلى مراد يحرضه على الفارة على الإسكندرية» .

وإلى الله أشكو هذا المنطق ! فلو كان الرجل يهتم بنفسه لا بوطنه لفضل الوقوف بجانب نابيلون بعد أن تلطّف وأبقاه محافظاً كما كان ! ولكنه يأبى أن يكون ساعداً للبغى وظهيراً للعدو ، فيكون ذلك مدعاة لوم وتقريع من مؤلف الكتاب يصلان به إلى اللعنة والسباب ! .

ويسير المؤلف على منواله هذا فإذا تعرض لنهاية البطل وقد رزق الشهادة في حومة البطولة الشريفة أبى إلا أن يهجنه ويزدريه فيختار أضعف الروايات الباطلة ويعلن أنه أخذ في ساعاته الأخيرة يتوسل ويتزلف ويقول لمشايخ الأزهر اشتروني يا مسلمين !

ثم ينحى باللائمة على من أعجب بالبطل من الكتاب الإنجليز فيقول ص ٢١٨ : « ولصاحبنا المرحوم الحاج عبدالله براون الإنجليزى المستشرق فى كتابه « بونا برت فى مصر » إعجاباً بالسيد محمد كريم وقال عنه أنه أبى دفع الفدية ومات شهيداً مقداماً وما أدرى علام اعتمد فى هذه الرواية ومصدره الوحيد فى هذا الجبرتى وهو

يقول إنه تدلل وقال : اشتروني يا مسلمين ا» .

وإذا كان الأستاذ أحمد حافظ عوض لا يدري علام اعتمد المستشرق الإنجليزي في قوله ، فإن مؤرخ مصر الكبير الأستاذ عبدالرحمن الرافعي يدري ذلك فقد حكم في هذا الموضوع حكماً عادلاً حين استعرض الروایتين المختلفتين في مقاله عن السيد محمد كريم بمجلة المجلة أكتوبر سنة ١٩٦٠ ! فقد ذكر ما رواه الجبرتي عن فزع كريم واضطرابه وما رواه « بوريين » سكرتير نابليون وريبو مؤلف التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية من ثبات الرجل وإبائه وقال بصدد ذلك ص ١١ من المجلة : « ولو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها .. ولما ذكروا رواية تشرف خصماً لهم حكموا بإعدامه ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن رواية روبين ترجح رواية الجبرتي ، لأن الجبرتي لم يكن شاهد عيان لواقعة إعدام السيد « كريم » بل يغلب على الظن أنه كان منزوياً في بيته بالصناديق في ذلك اليوم العصيب ! أما المسيو بوريين فقد شهد الواقعة ويقول في مذكراته أنه هو الذي أوعز إلى المسيو فانتور أن ينصح السيد محمد كريم بدفع الغرامة فأبى دفعها ، فرواية بوريين كما ترى هي رواية شاهد عيان وهي أوعى إلى الثقة

وأقرب إلى الواقع من رواية الجبرتي».

ولعل القارئ بعد ما تقدم يحتاج إلى أن نعرض لتاريخ هذا البطل ببعض التفصيل ليعلم عن إنصاف وحيدة كيف مثل دوره الشجاع كأحسن ما يقوم به وطني باسل أمين.

إن مما يشرف السيد محمد كريم أنه نشأ بالإسكندرية نشأة متواضعة فهو شعبي ينحدر من الطبقة المكافحة المناضلة وقد خاض غمار العيش مجاهداً فشق طريقه بين الأشواك والصخور، وامتهن الحرف الصغيرة درجة وراء درجة حتى صار «قبانيا» حاسبا يجمع بين الأرقام ويضبط الموازين، وزادته صناعته فهما لروح الشعب، وتقديرًا لحالته الاجتماعية | وكانت له آمال ومطامح فعمل على أن يصل إليها مستعيناً بخبرته الطويلة | وتجاربه العديدة في وطن مليء بالمفاجآت |.

لقد كانت مصر نهباً مقسماً بين المالك، يمتصون خيرها، ويعتصرون مجهودها، ويعيثون بجنودهم وأتباعهم بين أهليها، فيقتحمون التاجر في المدن ويصادرون الغلال والمحاصيل في القرى فلا يدعون فلاحاً آمناً في سربه، أو غنياً متمتعاً بخيره، وكان مراد بك من أعظم هؤلاء سطوة وشكيمة، فله من الحاشية والأتباع عدد هائل يرشحه

للصدارة ويدفعه إلى المجد كما يتصوره من أعنف طريق !
فخاف الناس شره ، وانضم إليه الكثيرون تخوفاً وحيطة !
ورأى السيد محمد كريم أن يعمل في دائرته الواسعة فأظهر
نباهة واهتماماً ولع اسمه في محيطه لمعاناً قوياً . . فتسلطت
عليه الأضواء واختير حاكماً للإسكندرية وقد تمكن في
منصبه المرموق أن يحفظ ميزان العدالة جهد طاقته ، فإذا كان
لا يمكنه أن يمنع عدوان الطغاة من الممالك فإنه كافح
مكافحة طيبة في سبيل توفير الرخاء ، وإشاعة الطمأنينة
والسلام ، وإقامة العدالة بين الناس ، وبهذه الأعمال الحميدة
رزق محبة خالصة من القلوب ، ورأى فيها الإسكندريون مؤثلاً
أميناً يصد عنهم هجمات الطوارئ ويذود عن بلده قدر
الطاقة كوارث الطغيان !

غير أن الأحوال السياسية لم تجر في عهده على السنين
المعهودة ، فقد تعرضت مصر لغزو خارجي أقض المضاجع
وأرق الجنوب ، وكانت الإسكندرية خط الدفاع الأول عن
البلاد ففي موانئها وقفت البوارج الحربية تحمل الكثير من
الجنود ، والرهيب الفاتك من السلاح ! وتعرض الثغر الوادع
إلى أعنف عواصف الاستعمار فما تضعضع أو استكان بل
قاده السيد محمد كريم إلى الحرية في صلابة وإيمان !!

أفاقت الإسكندرية من نومها ذات يوم فرأت الأسطول
الإنجليزى قد طوق الإسكندرية ببوارجه وجنوده، وسارع
السيد محمد كريم إلى لقاء القائد «نلسن» فأفهمه الضابط
الإنجليزى أن الفرنسيين سيحتلون البلاد عن قريب، وأنه
موفد إلى تعقبهم واستئصالهم، وظنها السيد خدعة مأكرة،
فرفض أن يصدق هذا الكلام وطالب القائد الإنجليزى
بالانسحاب، ورفض أن يمده بالمؤونة والماء، وتحير الإنجليز
فيما يصنعون ! لقد كانوا يرغبون فى الإقامة بالإسكندرية
حتى تمر البوارج الفرنسية الغازية فيتلاقى الفريقان فى شقة
البحر الأبيض الواسعة ! وهاهو ذا حاكم الإسكندرية يندهرهم
بالعداء ويمنع عنهم الغذاء والماء مما يتعذر معه المقام ! ولئن
اشتبك مع الأهالى فى حرب فإنه سيكسب معاداة قوم لم
يأت لمحاربتهم، وربما كانوا عوناً للقوات الفرنسية القادمة
فيما بعد .. هكذا فكر نلسن وقدر .. ومن ثم أثر التقهقر
والانسحاب !

رحل الأسطول الإنجليزى ... وكان الناس بين مصدق
ومكذب لما زعمه من مجئ الفرنسيين، إلا أن السيد محمد
كريم قد أخذ للأمر عدته فدعا الأهالى إلى حمل السلاح،
واتصل بمراد بك وبالعرب الذين يلتفون حول الشجر، كما أمر

بتحصين المدينة ، وإقامة المدافع وتهيئة الذخيرة والعتاد ،
وكان ما توقع الإنجليز أن يكون ، فقد وفدت الحملة الفرنسية
إلى الإسكندرية ! يقودها أكبر قائد عرفتة أوربا فى القرن
الثامن عشر ، ووقف السيد محمد كريم وجهها لوجه أمام
القائد الفرنسى نابليون بوناپرت !

ولو كان لمصر حظ مسعد فى تلك الأيام لتأخر قدوم
الأسطول قليلا حتى يلحق بغريمه الفرنسى . فتدور المعركة
بين أجاناب غرباء فوق سطح الماء دون أن يتعرض الناس
لويلات مدمرة ، ولكن المصريين لم يكونوا يفرقون بين
الإنجليز والفرنسيين فكلهم أفرنج أجاناب يتحدون ضد
الشرق والسلطان ! ولو كان السيد محمد كريم ذا خبرة
بالسياسة الدولية فى عصره لانتهاز هذه الفرصة ! ولكن
الجهل المطبق بأمر أوربا الدولية قد كبد مصر خسائر فادحة !
وعرضها لأعنف الزلازل والنكبات !

وقد كان رجال الحملة الفرنسية يعرفون كل شئ عن
مصر ، يعرفون أن جيشها أجنبى دخيل لا يحس بالعاطفة
الوطنية نحو بلاده ، ويعلمون أن أدوات الحرب لديها محدودة
ضئيلة وهى على ضعفها المتهافت لا تقف لحظات أمام
الأسلحة الحديثة وكان إمام الفرنسيين بموقع الإسكندرية

ومكانتها الحربية صادقا في حد ذاته، فقد أقام الرحالة الفرنسي فولتى بها مدة طويلة فعرف أماكن الضعف ورسم صورة خلافة للاستيلاء على البلاد من أقرب طريق، بل أكد للفرنسيين - كاذبا - أن المصريين يرحبون بهم، إذ أن الشعب في اضطراب يائس وقلق مرير من جراء تعسف سياسة المماليك وطغيان الولاة، وتجاهل الدولة العثمانية، فهو يتوق للحرية والخلاص مترقبا «منقذه» الجرى.

وقد صدق الرحالة في تصويره مقدرة الشعب الحربية! ولكنه كذب في زعمه أن المصريين سيرحبون بالفرنسيين ويرونها معجزة الخلاص والإنقاذ، أجل صدق الرحالة حين قال عن الإسكندرية «ليس بالمدينة سوى أربعة مدافع في حالة غير صالحة وليس بين الحامية من يمكنه إصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى «التدخين» ولكنه كذب في دعواه الجريئة عن الشعب، فالمصريين - في جميع عهودهم التاريخية - لم يرحبوا بأجنبي دخيل يدوس كرامة الوطن ويلوث نقاء ماء النيل!

وقدم نابليون مخدوع بما سمع! وتوهم أن المصريين سيصطفون على الطريق يهتفون بحياته ويعلنون ولاءهم للجمهورية الفرنسية، ولكن آماله قد انهارت حين وجد

الثورة الشعبية تقف في وجهه، فالأهالي يتحصنون بالأسوار ويدفعون طلقاتهم الصائبة إلى البواخر وقد نادى في نفوسهم عاطفة الكرامة والانتقام، لذلك أمر القائد الفرنسي بتطويق الإسكندرية ومحاصرتها من ثلاث جهات .

وإنك لتعجب بالبطولة الخارقة حين تسمع أن البطل الخالد (السيد محمد كريم) قد أصدر أوامره بمواجهة القوة الغاشمة واعتلاء الأسوار، فسارع فوق فوق قلعة قايتباي وتلقى طلقات المدافع المنطلقة بثبات وشكيمة، وجابوها بما يملك من ذخيرة، وجنود ورجاله من ورائه يصنعون صنيعه ويقتدون به حماسة وتضحية، وكانت موقعة حمراء بذل فيها المصريون جهودهم وذخائرهم وأرواحهم، ولكنها كانت محنة أليمة للفرنسيين فقد قوبلوا بهول عاصف وفزع شديد، ويكفى أن تعلم أن نابليون وكليبر ومينو، وثلاثتهم في طليعة قواد الحملة بأسا وعزيمة وحيلة قد أصيبوا جميعا بشتى الطلقات فأصبحوا يضمدون جروحهم، البالغة، ولم ينتصر نابليون على الوطنيين إلا حين وجه قذائفه إلى الأسوار المتداعية فتهاوت متساقطة واقتحم المدينة بأسلحته وقذائفه، فما تراجع الأهالي عن موقفهم في شئ، ولكن القوة الغاشمة تجبر من يقاومها على التراجع .

وليس عيباً أن تتفقهقر بعد أن تنفذ ذخيرتك ولكن العيب أن تعلن الاستسلام والخنوع بادئ ذي بدء فيلو كك المحتل لقمة سائغة، وهذا ما تحاشاه الوطنيون فلم يعلن السيد محمد كريم استسلامه إلا بعد أن فقدت الحامية كل عتاد، وأصبحت مواجهة الأعداء بدون سلاح ما، حماقة وعناء! وقد اعترف الفرنسيون أن الأهالي دافعوا عن الإسكندرية بحماسة عالية وثبات عظيم، حتى أفرغت ما تدخره من قوى متجمعة! وخلدت ببلاتها الحميد موقوفها في رحاب التاريخ، وحين قبض نابليون على الموقف لم يشأ أن ينكل بالأحرار، بل ترك الفرصة سانحة للمسألة والهدوء وأرسل منشوراته المتوالية يعلن إخلاصه للشعب المصري واعتناقه الإسلام ويبين أنه جاء لمحاربة المماليك الذين استبدوا بالشعب، ومنعوا الفلاح عن كل خير، واتخذوه حيوانا يحرق ويزرع ويحصد، ولهم ما ينتج من ثمر، وما يدر من غلال، كما أنه قدر بطولة السيد محمد كريم وأمر بإبقائه حاكماً على الإسكندرية وكان مما قاله له: «لقد أخذتك والسلاح في يدك وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير، ولكنك استبسلت في الدفاع لذلك أعيد إليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبدى لحكومة سيئة».

ولنا أن نسأل هل ركن السيد محمد كريم لما سمعه من معسول الكلام، وما أعيد إليه من مناصب وألقى له من المقاليد؟! لا لقد كان يتزعم حركة المهاجمة الشعبية . ويجمع الثوار فيرسم لهم الخطط في مقاطعة الأعداء وإغلاق المتاجر والمصانع في وجوههم ومنع المؤن عنهم حتى الماء .. فلم يكونوا يعثرون عليه إلا بعد جهد جهيد، ولم يصدق الشعب يوما، ما زعمه له الفرنسيون من إخلاص، ومع أنهم قاموا بعدة إصلاحات ساعدت على تقدم البلاد إلا أن المصريين قاسوا أعمالهم بمقياس (الدين) فوجدوا فيما يفعلون خروجاً على تعاليم الإسلام ورأوا في الحضارة الغربية بعداً شاسعاً عن تقاليد الشرق وميوله، فالفرنسي كما هو معهود عنه عاطفي يميل إلى اللهو ويولع بالخمر والنساء، والمصري متدين يذم التبرج ويلزم حدود القرآن فيما يأخذ ويدع لذلك كان الفرنسيون يأتون مجونهم ويشربون خمورهم معتقدين أنهم لم يفعلوا منكراً يؤاخذون عليه، والشعب ينظر إليهم نظرة المغيظ المخنق، ويرى في جرائمهم فاحشة آثمة وعدوانا جريئاً .

قال الجبرتي (لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع وهن حاسرات

الوجوه لا بسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة،
وأسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى، والمزركشات
المصبوغة ويركن الحمير والخيول ويسوقونها سوقا عنيفا مع
الضحك والقهقهية ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة
فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء، من النساء الأسافل
والفواحش وتداخلن معهم لحضوعهم للنساء وبذل الأموال
لهن،، وليت شعرى إذا كان السفور ومداعبة المكارى جريمة
دينية فكيف تكون الخمر والزنا، وما أتى به المحتلون من
الفواحش فى رأى الشعب الغيور.

وقد وقعت عدة اعتداءات من الأهالى على الجنود،
واشتبك الفريقان فى قتال متقطع، تلوح بوابره وتختفى فى
فترات متباعدة، مما أثار القائد (كليب) على السيد محمد
كريم وظن له يدا فعالة فى هذا الشعب، فراقب حركاته
وتنقلاته، وشاهده يجتمع مع الثوار، ويشير عليهم بالرأى
ويقدم ما يستطيع من العون، فتأكد لديه خطورته وعزم أن
يهتبل الفرصة فينكل به، ليرتاح من خطر يتهدهد بين الحين
والحين.

وفرض القائد على المدينة ضرائب قاسية، فذهب السيد
محمد كريم لمطالبتها بتخفيضها عن شعب الإسكندرية

المكدود، وأعلن رفضه لهذه المطالب المجحفة، فأسرها القائد في نفسه واتخذ منها دليلاً ثابتاً لإدانتها، ثم رأى كليبر أن يعدل ببعض جنوده إلى المدن المجاورة عله يجد بها ما افتقده في الإسكندرية من قوت ومؤونة، وسار الجنود في الصحراء المقفرة حتى بلغوا دمنهور وظنوا أنهم سيفيئون بها ظلال الراحة، ولكن المدينة جابهت دخلاءها بعاصفة رهيبة ومردت عليهم مرودا لم يبق معه مكان للاستقرار، وتساءل الفرنسيون عن هذا العصيان الخطير، فوجدوا اسم السيد محمد كريم يتردد على كل لسان، وسمعوا الكثير عن بطولته وزعامته، فعرفوا معرفة تامة أن الرجل قد أصبح زعيماً شعبياً لا يقتصر خطره على الإسكندرية بل شمل مدن القطر جميعها، فرجعوا أدراجهم إلى (كليبر) ليخبروه عما شاهدوه ولمسوه، وكانت نفس القائد مهيئة للقبض على السيد محمد كريم فأصدر أمره بذلك ثم جاءه أن نابليون بالقاهرة قد وجد بمنزل مراد كتباً ورسائل من السيد محمد كريم تدعوه لمواصلة الجهاد والسير لإنقاذ الإسكندرية فأيقن أنه أمام خصم ماهر عنيد يحاربه في أكثر من ميدان وبادر بإرساله إلى القاهرة لينال جزاءه من نابليون رأساً، فمر بطريقه على رشيد، وقد احتشد الأهالي لتحيته وأرسلوا

هتافهم الصارخ يعلن ولائهم المخلص للبطل المعتقل المستبسل
والزعيم الجريء، وتابع الأسير سيره، حتى وصل إلى القاهرة
فأصدر نابليون أمره بإعدامه مع مصادرة جميع أمواله وسمح
له أن يفتدي نفسه بثلاثين ألف ريال في أربع وعشرين ساعة.
والناظر إلى هذا الأمر الخطير.. يجد نابليون يبحث عن
المال في شره جاشع فهو يعلم ما للسيد كريم من ثروة طائلة
يود ابتزازها في غمضة عين، وهو لا محالة آمن شره إذ أنقذه
من الإعدام ونزل في أعماق السجون، ولكنه وجد الزعيم
الصابر يسمع الحكم فلا يبدى استعداده لدفع المال، فيطير
صوابه ويرسل إليه المستشرق الفرنسي الداهية «فانتور»
ليعلن إليه أن نابليون مسلم صح إسلامه وأنه يريد الخير كل
الخير للمصريين وهو معجب كل الإعجاب بمن يخدم بلاده
ويذود عنها لأنه تصدر الوطنية الصادقة، وقد جمع رجال
الديوان من صفوة العلماء وخيرة الأعيان فعلى السيد كريم
أن يبذل المال المطلوب فداء لنفسه وسيسعى بعد في خلاصه
وإطلاق سراحه، ليكون كما كان في طليعة الرجال، ثم
اصطنع الزائر إشفاقاً مموهاً وصاح بصاحبه: لقد سمح لك
نابليون أن تفتدي نفسك بثلاثين ألف ريال، وأنت رجل غني،
فماذا يصدق أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ الصغير؟

وترقب فانتور بعد محاضراته المنمقة عن نابليون أن يلمس
خضوعاً مستكيناً من أسير قربت خطواته من الموت حتى
أصبح قاب قوسين ولكنه يجد صاحبه يقول فى عزيمة وإباء :
«إذا كان مقدراً على أن أموت فلن يعصمنى من الموت أن
أدفع المبلغ، وإذا كانت الحياة مقدرة فلم أدفعه دون
استحقاق؟»

وكانت إجابة خطيرة ساقط صاحبها إلى الإعدام الظالم،
فأدى به إلى الشعب رسالة أخرى فى التضحية والاستشهاد
بعد أن أسلف رسالته الأولى فى الكفاح والجلاء.

ورفرت أجنحة الملائكة للترحيب بشهيد عاطر الذكر
جرئ القلب يودع وطنه اللهيف ليستقبل عدالة الحق
والإنصاف فى السماء.

وتقضى الأيام فتشرق شمس الحرية على مصر بقيام ثورة
٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فينصفه الأحرار إذ توضع صورته
مكبرة على رأس المحافظين فى دار المحافظة تخليداً لذكراه ثم
يطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الإسكندرية وهو شارع
التتويج، ويطلق كذلك على مسجد عظيم بالشفر كان قد أعد
ليحمل اسم فاروق، وما عند الله أعز وأكرم.



مما يؤسف حقاً أن نجد فريقاً من الكتاب يتحدثون عن زعماء العالم الإسلامي في العصر الحديث حديث المستخف الذي يتربص الشر بالفضلاء . فتراهم يترجمون لأمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وأحمد خان ، وكل همهم أن يجردوهم من فضائلهم المشهورة . وأن يلتمسوا ما يشم منه رائحة الاعتدال ليجعلوه مروقاً وانقياداً إلى الاستعمار الغربى . وذلك مرض خلقى قبل أن يكون خطأ علمياً .

ومن الذين قادوا حركة الإصلاح الدينى فى الهند السيد أحمد خان ، حيث أنقذ المسلمين من هوة الجهالة والتأخر والانعزالية إلى عالم التقدم والمعرفة والحضارة . وأبلى فى هذا المجال بلاء يشهد به الواقع الحضارى للمسلمين فى الهند إذا قيس بما قبله من مهاوى التأخر والجمود ، ولكن ذلك لم يكن شفيعاً له لدى من يحسبون أنهم وحدهم المسلمون ، وأن من يخالفهم فى الاتجاه مارق ملحد ضلّول و جماهير العامة فى كل بلد إسلامى تنخدع بأضاليل المتزيين بالعمائم واللحى بل بالتمائم والتعاويذ حين يصدرّون الأحكام الضالة على غير هدى ، بل عن جهالة مفرطة ، وقد يستشهدون

بأقوال لا يفهمونها على الوجه الصحيح !

ولعل أكبر من ساعد على انتشار الأراجيف حول السيد أحمد خان، هو الرجل العظيم جمال الدين الأفغاني فقد كتب عنه مقالاً نارياً ملتهباً، لمهادنته الإنجليز في سبيل تنفيذ مارآه من وجوده الإصلاح، والأفغاني نائر صاحب لا يلتمس أنصاف الحلول، ويفضل المجابهة الصارخة - وإن عادت عليه بالإخفاق - على المسألة الداعية إلى أخذ الحقوق بالتؤدة شبرا شبرا، ومسلكه هذا إزاء أحمد خان هو نفس مسلكه إزاء تلميذه الإمام محمد عبده حين فضل الاتئاد في مناوئة الإنجليز بعد إخفاق الثورة العربية، لأنه وجدهم يملكون كل شيء في مصر. ولا يستطيع المصريون أن يقوموا بمقاومة سافرة أمام القوة الغاشمة، فرأى من الحكمة أن يهادنهم كي لا يقفوا في سبل طريق الإصلاح الديني الذي يصر على تنفيذه ! ولم يكن محمد عبده غافلاً عن حقوق وطنه في الاستقلال والحرية ولكنه رأى اتباع الخطوات المؤدية إلى النجاح دون اصطدام يمنع خطة الإصلاح أن تسير كما يريد ! كما لم يكن أحمد خان يجهل أنه يحارب قوة استعمارية تستطيع أن تشل

حركته شللاً تاماً، وقد أتت جهود الرجلين الحصيفين
أشهى الثمرات فانتقل الفكر الإسلامى فى الهند ومصر
من عهد الجمود المتحجر إلى عهد الإنطلاق الرشيد،
وأريد بعد ذلك من المتشجنين من دعاة الغيرة الجاهلة
على الإسلام أن يعرفوا أن الإسلام عزيز جداً على كل
مسلم، وأنهم ليسوا أقوى إيماناً وأصلب عقيدة ممن
ينادرونهم بالشقاق، فإذا كان من رأى مخالفٍ لديهم.
فلهم أن يبدوه بعيداً عن التشنج والضجيج، على
ضرورة التسليم بأنهم ليسوا وحدهم أصحاب الرأى
الصحيح، لأن كل إنسان يخطئ ويصيب، ولعل أعظم
وأفضل من أستشهد به فى مجال الحديث عن (زعماء
الإصلاح فى العصر الحديث) هو الدكتور أحمد أمين،
لأن كتابه الذائع تحت هذا العنوان قد أعطى كل زعيم
حقه. فذكر ماله وما عليه بأسلوب المؤرخ المنصف،
ولذلك رجحت كفة هؤلاء الزعماء لديه عن يقيناً

يقول الدكتور أحمد أمين فى مقدمة حديثه عن السيد
أحمد خان نقلاً عن كتاب (زعماء الإصلاح فى العصر
الحديث) :

هو فى الهند أشبه شىء بالشيخ محمد عبده فى

مصر، بعد مفارقتها السيد جمال الدين الأفغانى وعودته من نفيه، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتهذيب والتثقيف، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتى بعد ذلك تبعاً، فلا استقلال لجاهل ولا منحرف، إنما عماد الاستقلال العلم، العلم بالدنيا والدين، العلم بكل شيء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيمياء، ورياضة، وفلك، ونفس واجتماع، ونظام الحكم والإدارة، ذلك كله إلى دين يحيى القلب. ولا يقيد العقل، ويغذى النفس، ولا يشل التفكير. والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك، فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل فى العلوم، ونظم الدنيا إلى غايتها، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه، وفيه ما يحيى القلب ويوجه الإنسان فى حياته وفى علمه إلى الخير، ثم كلاهما يرى أن السلطان فى مصر وفى الهند فى يد الإنجليز، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر فى البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع مصر والهند مقاومته، قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم

وبحثهم عن منافعهم الشخصية، فالأولى مسألة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما يستطيع لخير الشعب منهم، لنفهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً، كما ينهضون بها مادياً، وأنهم مسئولون عن جهل الأمم التي يحكمونها، كما أنهم مسئولون عن فقرها، وأن العلم والثقافة وإثارة الأذهان في مصلحة المستعمر والمستعمر.

لقد حضر إلى مصر في ربيع الآخر الأستاذ فخر الدين أحمد مسجل جامعة عليكرة وألقى بجمعية الشبان المسلمين محاضرة قيمة عن هذه الجامعة ومنشئها السيد أحمد خان فكشف للمجتمع المصري عن حقائق رائعة لم يكن الجمهور على علم بها، بل كان عن علم بما يناقضها استجابة لتضليل المتشجنين ممن يلصقون التهم بالأبرياء، وقد رأيت أن ألخص هذه المحاضرة أو الفقرات الهامة بها، ليعرف من يجهل كيف كافح الرجل الكبير حتى حقق ثمرة الكفاح بقيام هذه الجامعة ذات الأثر الخطير، وقد ألقى الأستاذ فخر الدين حديثه بالإنجليزية، وقام بترجمة خلاصته الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، فكان مما قال ملخصاً: «استمر الإنجليز تجاراً بالهند قرابة ٤٠٠ سنة،

فعملوا على نشر التربية الحديثة، ولم يقبل عليها المسلمون، على حين انتفع بها غيرهم. فعرفوا كثيراً من العلوم المعاصرة، وحين حكمت الهند البلاد لم نجد من يستطيع تقلد الوظائف الحكومية غير الذين تعلموا وواكبوا العصر، ثم ضاعت ثروات المسلمين المالية في مناوأة الاستعمار الإنجليزي، فأصبحوا في حالة بائسة إذ فقدوا المال وحرّموا الوظائف، عند ذلك شعر السيد أحمد خان بالعاقبة الوخيمة التي تهدد المسلمين إذا لم يواكبوا العصر في تعلم ما جدّ من الفنون، ورأى أنه لا بد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية الحديثة إذا أرادوا أن يحتفظوا بوجودهم المحترم في الهند، ولا سبيل إلى ذلك غير إنشاء معاهد علمية خاصة بهم، ومن أين؟ كما أن لغة المسلمين هي الأردية وليست لغة العلم الحديث، لقد وقف المال عقبة أمام المشروع التعليمي، ولكن أحمد خان رأى أن يبتدئ بالفصول اليسيرة في مدرسة متواضعة، ويترقى بها عاماً فعاماً حتى تصير كلية ثم تصير جامعة، على أن تُدرس بها اللغة الإنجليزية ليستطيع الطالب المسلم استيعاب العلوم الحديثة في كتبها الأصلية، وكان اتخاذ اللغة الإنجليزية أداة لتعليم

العلوم الحديثة دون الأوردية مصدر ضجة ناقمة بين الشيوخ، وقد رد عليهم السيد أحمد خان بأن الأردية ليست لغة القرآن، ومع ذلك فهي لغة الشعب الذى لم ير مانعاً من إتقانها، فلتكن الإنجليزية، لغة الثقافة. ولن تضر الدين فى شىء ولكن الرجل صمم على تنفيذ فكرته فأنشأ مدرسة فى عدة أكواخ، ومازالت تنمو فى جو من المعارضة حتى تحولت المدرسة إلى كلية ثم إلى جامعة وهى التى تسمى جامعة عليكرة التى أصبحت كبرى جامعات الهند.

وبعد سبع سنوات من تأسيس الجامعة أى فى سنة ١٢٩٩ هـ لأنها بدأت ١٢٩٢ هـ، ألقت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية فى الهند، فكان رأيها الذى سجلته فى التقرير أنه إذا أنشئت جامعات أخرى على نمط جامعته عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية فى الهند، وقد رأى السيد أحمد أن تظل جامعة بعيدة عن سلطة الحكومة مع انتفاعها بما تراه صالحاً من أساليب الجامعات المتقدمة فى الغرب، وإذا كانت جامعات الشرق فى اليابان والصين قد انتفعت بتجارب الجامعات الأوربية فلا بد أن نحذو حذوها كيلا نتخلف عن

الركب، ثم رأى أن يزور جامعتي أكسفورد وكمبرج
بانجلترا ليدرس عن قرب أساليب التعليم بهما
ومناهجهما، ويختار منهما الصالح المناسب للمسلمين
في الهند، وأخذ معه ولده القاضى الكبير السيد
محمود، وهو أول من تولى القضاء من الهنود، ثم درسا
معاً طرق التعليم، واهتديا إلى أن رسالة الجامعة ليست
رسالة العلم وحده، بل لابد من تربية الخلق والسلوك،
والعمل على تكوين الشخصية الاجتماعية المستنيرة،
فاتجه السيد أحمد إلى أن يكون من مواد الدراسة فى
جامعة عليكرة ما يعمل على تكوين القادة، وتنشئة
الرجال ذوى الخبرة بأساليب الحياة، ثم خطب بعد
رجوعه فى مؤتمر حضره أساتذة الجامعة ونبهاء الطلاب،
فأعلن أن ماينقص المسلمين فى الهند هو تخريج القادة
الذين ينهضون بأعباء الأمة الإسلامية، وعلى الجامعة أن
تعمل سريعاً على ملافاة هذا النقص، واستقر رأى
على أن تكون الجامعة داخلية يعيش فيها الطالب يومه
الكامل كما يعيش فى بيته تماماً، إذ يعلمه أساتذته فى
ساعة العمل بالفصول، ثم يكونون معه لتعليمه سلوكه
الاجتماعى بتأثير توجيهاتهم المقومة للسلوك الأمثل،

وعلى الأغنياء أن يسهموا فى نفقات إقامة الفقراء بالجامعة وليست من الفداحة بحيث لا يتيسر لهم ما يطلب من المال، إذ لا يتكلف الطالب فى الشهر الواحد غير خمسة جنيهات فقط : مأكلاً وملبساً ونوماً، أما الحياة الرياضية فقد اقتبس السيد أحمد خان منهجاً من أكسفورد، وأصبحت التربية الرياضية إحدى رسائل التكوين الخلقى بما تفرضه من تسامح وانضباط، ودقة مع التنافس الشريف الذى لا يؤدى إلى الشحناء! وقد تخرج من طلاب جامعة عليكرة من صاروا أصحاب الكلمة المسموعة فى الهند، وتولوا زعامة المسلمين مثل مولانا محمد على ومولانا شوكت على، وقد تولى القيادة فى المناصب الهامة بالهند صفوة من المتخرجين منها، ولولا جامعة عليكرة لظل المسلمون بعيدين عن المناصب الهامة فى الدولة إذ كانت ثقافتهم قد انقطعت عن ثقافة العصر تماماً، ولابد من دم جديد!

وقد كان من أمل السيد أحمد أن تصبح جامعة عليكرة منارةً للمسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى، فلا يقتصر الالتحاق بها على الهنود وحدهم بل تفسح صدرها للوافدين من البلاد الإسلامية. وضرب المثل على

ذلك بالأزهر الشريف فى مصر الذى يضم أروقة لأبناء الدول الإسلامية، ينزلون بها للإقامة المريحة جوار مايتلقون من فنون العلم، وإذا اقتصر الأزهر على الدروس الدينية وحدها فلأن جواره بمصر جامعة أخرى تقوم بتدريس العلوم المعاصرة، (وهذا كان قبل التطوير الذى أنشأ الكليات المدنية فجمع الثقافة الإسلامية إلى غيرها من علوم العصر).

كما أن السيد أحمد خان قد انتدب للتدريس بالجامعة أساتذة من إنجلترا، وتولى بعض المستشرقين المعتدلين، دراسة العلوم التاريخية والجغرافية، وألفوا فى عناصرها كتباً صارت اليوم من أقوى المراجع فى الحضارة الإسلامية، ومن بينهما كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذى ألفه المستر (توماس أرنولد) ومن كبار أساتذتها المرموقين الدكتور نظير أحمد الكاتب الهندى الأشهر، والعلامة الشيخ شبلى النعمانى الذى تُرجمت آثاره الإسلامية إلى اللغة العربية ونشر بمجلة المنار بحثاً كان منها نقده الدقيق لكتاب (التمدن الإسلامى) لجورجى زيدان، وغيرهم كثير.

وفى كتاب الإسلام فى القرن العشرين حاضره

ومستقبله، فصل منصف كتبه مؤلفه الأستاذ عباس محمود العقاد، عن السيد أحمد خالد أوجز فيه خلاصة جهوده التربوية الهادفة، وقال فيما قال :

«وقد وُصف السيد أحمد خان بالأناة والحذر، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة في أناته وحذره، ولكنهم لو وصفوه بالإقدام والهجوم، لوجدوا الدلائل علي ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة، إن كان معني الأناة أن يتخلف المستأني عن العمل في حينه، فما تواني أحمد خان عن مصارحة الإنجليز بتبعاتهم وعيوب إدارتهم وما تواني عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم، ووسائل الخلاص من نكبتهم، وما تواني بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها علي النحو الذي يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل، وتفاوت النسبة في توزيع السكان، ولكنه كان يخشي مغبة العجلة، ولا يؤمن بجذواها، وكانت هذه الأناة منه أدل علي الشجاعة من الهجوم السريع، لأنه كان يغضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل في غير جدوي، وقد عرف مكانم الضعف في قومه، ولم تخف عليه مكانم القوة في الدولة الغالبة علي وطنه، فجزم بضرورة

التعليم الحديث ثم بدأ بإرسال ابنه إلي الجامعات الإنجليزية، ولخص مناهج الإصلاح عنده في الدين المستنير.

ومن شأن الذين يقومون بالإصلاح الديني في بلادهم ألا يفرغوا للتأليف العلمي مع قدرتهم الكاملة عليه في أتم وجوهه، لأن أعباءهم المتراكمة في مجالهم الواسع تشغل من أوقاتهم كل لحظة. فجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وحسن البنا والمراغي لم يتركوا من الآثار العلمية ما تركه زملاؤهم الذين تفرغوا للبحث النظري فحسب، ولكن السيد أحمد خان قد كان قلمه مواكبا حركاته الإصلاحية فخالف هذه القاعدة حين أكب علي التأليف ليبحث في مضاعفات آثاره توجيهاته الإصلاحية فقد كان شاعرا يقف في اللغة الأوردية مع شعراء عصره المجيدين كما أكد ذلك من درسوا قصائده، وقد أنشأ جريدتين لم يخل عدد منهما من نفثات يراعه، وهما «سيد الأخبار» و«تهذيب الأخلاق» لأنه كما قال بقلمه «لم يأل جهدا في ترقية العلم والأدب باللغة الأردية، فاتخذ أسلوباً يجمع بين السهولة والجزالة مجتهدا في تشويق القاريء إلي مقالته

التي تنقل عواطفه ومشاعره، وكلها تتجه وجهة الإصلاح والتهديب، وكان يعرض أفكار معارضيه وافية مكتملة ليرد عليها فقرة فقرة، والذين شنوا الحرب عليه في حياته قد اعترفوا بفضلله حين انتقل إلي رحمة الله سنة ١٨٩٨ فكتبوا المقالات الضافية تأبيناً وتحليلاً وتقديراً، ولا بد أن أشير إلي تفسير القرآن الكريم الذي ألفه بروح علمية تركز على النهوض الإسلامي في شتى المجالات ولم يتعرض للمعجزات التي تملأ كتب المفسرين عن أنبياء الله، وعد ذلك مأخذاً شدد عليه خصومه النكير، ولعل الرجل لم يشأ أن يلم في تفسيره إلا بما يفيد الحاضر، أما الماضي البعيد، فقد أفاض المفسرون في تحليله، وإذا كان هناك خلاف في بعض ما اتجه إليه، ففي كتب كثيرة من كتب التراث مواضع للخلاف الشديد، والرجل بعد ذلك معترف بأنه يخطيء ويصيب، ولعلي وفقت لقول كلمة الحق عنه بين ركام هائل من الأباطيل.

إن المشاهد الملموس أن زعماء السياسة يحظون من التنوية والافتعال ، وتعدد الدراسات بأكثر مما يحظى به زعماء الدين والاجتماع والاقتصاد والتربية ، فأحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول وهم ممن لا نشك في زعامتهم الحقيقية قد نالوا من التنوية أكثر ممن نال محمد عبده وعلى مبارك وطلعت حرب ، وهؤلاء قد أفادوا الأمة ، وجاهدوا في سبيلها جهاداً لا يقل عن جهاد السياسيين من الزعماء ، وسأتحدث الآن عن بعض مآثر على مبارك التي عادت على الأمة في ميادين شتى بالتقدم والازدهار

وأذكر أنى كتبت بمجلة الهلال مقالا عن على مبارك قلت في مطلعته : «إذا نظرنا إلى أعمال على مبارك الإدارية عجبنا كيف اتسع وقته لهذه الأعمال الجليلة في عدة وزارات مختلفة ، وكيف كان الرجل بارع الجهد في التربية والتعليم والهندسة والأشغال والمواصلات والأوقاف ، لقد أدى ذلك الجهد بكفاح جابرة لا يعلمون أنهم جابرة لأن جابرة العلم حكماء فضلاء ، لا يرسلون الضجيج الصاخب كما يرسله جابرة الحروب والسياسة ، وكان من المعقول ألا تترك هذه الجهود الإدارية مجالا للتأليف النظرى بعد الكفاح العملى الدءوب ، ولكن على مبارك

ترك من المؤلفات فى شتى العلوم ما يستغرب إبداعه من قبله فى مهامه الإدارية الشاقة، فكيف إذا كان هذا المجال العلمى فسيحاً ممتداً يشمل مجلدات تقع فى عشرين جزءاً تحت عنوان (الخطط التوفيقية) كما تمتد هذه المؤلفات الى كتب مستقلة فى مختلف الفنون من تربية وهندسة وزراعة وقصة! أجل لقد مارس الرجل القصة الطويلة فى جزءين كبيرين، كما فهم مدلولها فى عصره، وفى منهجه الإصلاحى، وأضحى رجال الفكر التاريخى يفسحون له مجالاً فى التفكير العلمى كما يفسح له رجال الإصلاح الاجتماعى مجالاً رائعاً فى دنيا التقدم الحضارى، أقول بعد ذلك: ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد.

ونحن حين نريد أن نلم بموجز حياته وأعماله، نجد الطريق ميسوراً، لأن الرجل قد ترجم لنفسه ترجمة مشبعة ضافية فى كتاب الخطط التوفيقية، فكان من أوائل من كتبوا السيرة الذاتية فى الأدب الحديث إن لم يكن أول من كتب على الإطلاق فالسبق متنازع فيه بينه وبين رفاعة الطهطاوى، وكلاهما علم فى بابيه، وأجمل ما فى ترجمته لنفسه أنه وهو الوزير الخطير والمصلح الاجتماعى

الناهض، لم ينكر ماضيه الأليم، بل تحدث بإسهاب عما لاقاه فى نشأته الأولى من أهوال يكفى أحدها لصده عن طريق التعليم، ولكنه كافح وناضل، وحفر بأصابعه الصخر الجامد حتى بلغ ما أراد، وقراءة ما كتبه فى هذا المجال درس عملى تربوى يغنى عن صفحات كثيرة تقال فى بحث الهمم، والتغلب على الصعاب، لأنها تنقل عن واقع عملى لا خيال فيه، وتدل بما لا يحتمل الشك فى أن الجهاد الجاد والكفاح المتصل ينتهى الى النتيجة المرجوة، لأن الله لا يضيع أجر العاملين!

ولد على مبارك فى برنبال الجديدة سنة ١٨٣٣م فى كنف والد كان فقيه البلدة، وإمام مسجدھا، وكاتب العقود الزوجية، والمباشر لتقدير الموازين فى المحصولات الزراعية، وهذه الوظائف جعلت له وجاهة فى قريته، ومنزلة لدى الحكام، فهو لا يشقى شقاء الفلاحين يشقى فى زرع الأرض وتقديم المحصول إلى الملتزمين، فإن عجزوا فالضرب بالسوط والحبس والقهر، غير أن الحال لم تدم فقد هرب أكثر الفلاحين من القرية وتركوها دون من يزرع، ففرض الحكام على والد على أن يقوم بالزراعة كما أوجبوا عليه من الضرائب ما لم يستطع دفعه فهرب

بأسرته إلى الشرقية، ووجد عملاً كعمله الأول في قريته
إذ كان القوم في حاجة إلى فقيه وإمام وكاتب عقود، ثم
ألحقه والده ببعض المعلمين ليجيد القراءة والكتابة،
فصادف رهقاً في المعاملة وغلظة في العقاب دون أن يجد
من الأسلوب التعليمي ما يفيد، فهرب من المعلم على غير
رغبة أبيه، وواصل الالتحاق في قرى أخرى بمن يكمل له
تعليمه فكان لا يجد من يبتغيه، وقد حصلت مشادة بينه
وبين كاتب القرية، فافتري عليه أنه لص وأدخله السجن،
ولكن علياً بعد طول تفكير ترضى السجن فسهل له
طريق الهروب، وبجهد استطاع أن يلتحق بخدمة مأمور
ذى سلطان على الناس، وهو أسود، له في الناس منزلة
كالحكام الأتراك، فجعل الصبي يقول في نفسه هذا عبد
أسود واستطاع أن يكون حاكماً، فما الذي أوصله إلى
ذلك، وواصل السؤال حتى علم أنه تخرج في مدرسة
القصر العيني بالقاهرة، فمهدت الطريق له كي يكون
رئيساً حاكماً، ومن هنا كان شغله الشاغل أن يلتحق
بالمدرسة، وواصل جهده حتى أصبح تلميذاً بها، ولم ينل
ما يرجوه، لأن المدرسين كانوا غلاظاً في المعاملة، وكانت
سبل الإقامة من نوم ومسكن وملبس على أسوأ ما ينتظر.

فالنوم على الحصير من الحلفاء ، والطعام خشن جاف تعافه النفس ، حتى كان يفضل الجوع عن تناوله ! ولحقه المرض ، وأدركه الجرب لعدم الاهتمام بالصحة .. ثم أشرق فجره حين انتقل الى مدرسة المهندسخانة ، فقضى سنواتها الخمس مرموقا بين المدرسين والطلاب لأنه كان الاوّل فى جميع السنوات ، وبهذا التفوق الملحوظ اختير للسفر لباريس مع أبناء محمد على ، ولم يكن يعرف حرفا من الفرنسية لأن الذين أرسلوه لم يرغبوا تعليمه ولكن كي يكون فى خدمة الأمراء فدفعته غيرته إلي أن يتعلم الفرنسية لا فى حصص دراسية ولكن عن طريق من يعرفها من الطلاب ، وتقدم للامتحان وهو ليس من أعضاء البعثة المصرية ففاز والتحق بمدرسة أرقى فأجاد الهندسة الحربية ، ونظم المدنية ، وعاد يحمل الشهادة الباريسية ليشغل وظيفة فى إدارة الأشغال الخاصة بمراقبة النيل وإصلاح الترع والجسورا وفى أثناء اتجاهه إلى دمياط مع رؤسائه استأذن كي يزور قرية برنبال بعد أن فارقها منذ أربع عشرة سنة ، وكان أهله قد رجعوا إليها بعد الهجرة منها ، وهذه الزيارة الغريبة التى لم يكن ينتظرها أحد من أهله بعد أن يتسوا من لقائه ، تحدث عنها على مبارك فى

بساطة عذبة فقال : « لم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا ، فطرقت الباب فقبل من أنت ؟ فقلت : ابنكم على مبارك ، وكانت مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة ، لم ترن فيها ، ولم تسمع صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر ، وتحد النظر ، وكنت بقيافتى العسكرية الفرنسية لابسا صيفا وكسوة تشريف ، وكررت السؤال حتى علمت صدقى ، وفتحت الباب ، وعانقتنى ، ووقعت مغشياً عليها ، ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرد وجاء أهل البيت والجيران وامتألاً المنزل أناسا إلى الصباح ، ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام ، وتريد عمل وليمة وهى فارغة اليد ، ورأيتها تبكى ففهمت حقيقة الحال فناولتها عشرة نبتو كانت فى جيبى ففرحت وأولت ، ثم استأذنت ووعدتهم بالعودة ورجعت الى دمياط .

كان البيت الحاكم منشقا على نفسه ، فمن يصطفيهم عباس الأول يكرههم سعيد ، وكل الناس يعرفون اتجاه كيان الموظفين ، لذلك كان عباس الأول راضيا عن على مبارك ، فعهد إليه أموراً مهمة ، وكان شديد الكلفة ببناء القصور فجعل على مبارك مهندس الأول ، وظل محترما

فى عصره، ولكنه لا يستطيع ان يعارض الحاكم فى اتجاهه إلى إلغاء البعثات التعليمية بالخارج، وتخریب المدارس وطرء من بها من الطلاب، إذ كان عباس لا يود أن يكثّر التعليم لضيق أفقه، ولم تطل أيام عباس إذ راح ضحية مؤامرة من أعدائه، وانتقل الحكم الى سعيد، فكان من همه إقصاء كل من له سبق بعباس، ولم يشأ أن يهمل على مبارك نهائيا، بل أحقه بالفرقة الحربية التى ذهبت لمساعدة الدولة العثمانية، فاستمر بها سنتين أسفا لأنه لا يعمل فى ميدانه، ولا يستطيع أن يفيد مصر فى شئ ولكنه من ناحية ثانية تعلم اللغة التركية بمساعدة من بها من كبار الجنود الأتراك، وهكذا يتسع فهمه للتعليم كيلا يفوته شئ، وأكبر ما أثر فى نفسه يوم ترك وظيفته بمصر حين خرج التلاميذ من المدرسة التى يديرها باكين فأصروا على توديعه بالرغم من معارضة ضباطهم، وقد فرحوا أنهم لم يجدوا مثله إذ كان أبا رحىما قبل أن يكون رئيس مدرسة، وبذل للمتفوقين من المكافآت المالية ما جعل ميدان التنافس يأتى بأشهى الشمار، ثم عاد من عاد من جنود الحملة العسكرية فابتسم له الحظ إذ تولى اسماعيل باشا حكم البلاد، وكان مشغوقا بالتعليم، وبناء المدارس

وإرسال البعثات، وتقدير الأكفاء، فكان على مبارك أكبر مساعد له فى هذا الاتجاه وحسبه أنه جعل التعليم المدرسى يشمل جميع العواصم بعد أن كان مقصوراً على القاهرة والإسكندرية، كما أكثر من الكتاتيب لتعليم الأطفال تحت نظام جديد. إذ كان من قبل محصوراً فى محفظى القرآن ممن لا يفهمون شيئاً من معانيه، وكانت الحالة الصحية للمكتب التعليمى سيئة حيث لا اهتمام بالنظافة إطلاقاً، فالمرضى يجلس جوار الصحيح وإن كان أجرب، والأطفال يشربون من ماء قذر ومن كوب واحد، وقد تجاوز المرحلة الأولى إلى ما بعدها من المراحل، فوضع لكل مرحلة منهجاً، واختبر المدرسين بنفسه ليضع كل مدرس فى الموضع الذى يناسبه، ومن فضائله أن حول بعض الكتاتيب الراقية إلى مدارس ابتدائية، فارتفع المستوى للتلاميذ، ومن ثقة إسماعيل به أنه عهد إليه الإشراف على الأوقاف والاشغال فانتهز سيطرته عليهما ليكون منهما العون الكبير فى بناء المدارس، وفى إصلاح الطرق المؤدية إليها، ولا أترك الحديث عن أثره فى التعليم دون أن أشير إلى إنشائه دار الكتب المصرية، إذ جمع فيها ما استطاع جمعه من الكتب والملازم التى كانت تملأ شبابيك

المساجد الموصدة، ولا ينتفع بها أحد، وشجع الأعيان على التبرع بما لديهم من الكتب مخطوطة ومطبوعة لتكون مددا لدار الكتب، وقال إن ذلك له ثواب الوقف على الأعمال الصالحات، ومن كانت لديه مكتبة كبيرة جعلها فى حجرة خاصة، وكتب عليها اسم صاحبها تشجيعا لسواه، وإذا كانت حالة التعليم من ناحية التدريس فى درجة هابطة لا تبشر بسرعة النتائج المرجوة، وبخاصة تدريس اللغة العربية الذى كان يجرى على طريقة حفظ المتون، ثم قراءة الشرح دون فهم، فقد عمل على إنشاء مدرسة دار العلوم منتخبا لها نجباء الطلاب من الأزهر بعد امتحان دقيق ومهيئا لها كبار الأساتذة الذين اشتهروا فى هذا الميدان، ومنهم أعلام البلاد فى الأدب واللغة والتشريع وجعل بالمدرسة قاعة للمحاضرات الأسبوعية، حيث يلقي كل أستاذ محاضرة فى مجال تخصصه يحضرها الطلاب ومن يريد من الموظفين وطالبي التثقيف !

أما إنشاء الصحافة الأدبية فقد كان إحدى ثمراته الناضجة حيث أنشأ مجلة روضة المدارس، وأسند رئاسة تحريرها إلى السيد رفاة الطهطاوى، وعلى صفحات هذه

المجلة نشرت قصائد لطلاب صاروا من بعد من نوابغ الشعراء مثل: اسماعيل صبرى وصالح مجدى، ومصطفى نجيب .

ولم يستنكف أن يؤلف كتب المطالعة لتلاميذ المرحلة الأولى، وكان يزور المدارس يومياً ليشرح للمدرسين طريقة التدريس، ودعا صديقه على فكرى باشا للمشاركة فى هذا المضمار فألف للتلاميذ كتباً فى النصوص والمحفوظات اختارها من القديم والحديث معاً، كما اقترح تأليف كتب للنحو، ظهرت لأول مرة فى أسلوب يعتمد على الأمثلة قبل أن يفاجأ التلاميذ بالقواعد، أما كتبه العلمية والأدبية فكثيرة مثل: (الخطط التوفيقية) وقصة علم الدين فى جزئين كبيرين وغيرهما، يقول الأستاذ أحمد أمين: «ومن طرائف على مبارك أنه وهو وزير المعارف الخطير لم يستنكف أن ينظر إلى الأطفال فى بدء تعليمهم للقراءة والكتابة فأخذ نفسه بتأليف كتاب من جزئين، يعلم فى أولهما حروف الهجاء وكيف تتركب. وثانيهما للتمرين على المطالعة السهلة فى موضوعات جديدة، وقد كان فى وزارة المعارف أثناء توليته زمامها، حراً يضع المناهج واللوائح ويرسم الخطط للامتحان

ولقبول الطلاب فى مطلع العام، ثم بعد الاحتلال عين
وزيرا لوزارة المعارف فوجد المستشار الانجليزى يعارضه فى
كثير مما يريد، فكان يتألم فى غيظ، ولا يريد الاستقالة
حتى ينقذ ما يستطيع إنقاذه حتى استقالت وزارة رياض،
فترك الحكم وعكف على التأليف !

نأتى بعد ذلك إلى موقف على مبارك من الثورة
العربية، وهو موقف اختلفت فيه الآراء إلى حد التناقض
فمن قائل إنه كان ضد الثورة ومنحازا كل الانحياز إلى
توفيق، ومن قائل إنه لم يكن ضد الثورة وأنه اشترك مع
زعمائها فى كثير من المواقف، ولكل آراؤه التى لا تسلم
من شبهات تحبط مدلولها، ولم أر من تعرض لهذا الموضوع
بموضوعية صريحة، وبحياد دقيق غير صديقى الأستاذ
محمود الشرقاوى فقد كتب فصلاً جيداً بمجلة المجلة العدد
٤١ الصادر بتاريخ مايو سنة ١٩٦٠م ذكر فيه كل ما قيل
من الجانبين، وانتهى إلى ترجيح دقيق بعد مناقشة ما
تعرض له، ويقينى أن ما كتبه صديقى الأغر الأستاذ
محمود الشرقاوى - رحمه الله - هو فصل المقال فى هذا
المجال وسأنقل منه ما يضىء الحقيقة من ظلام كثيف، تاركاً
ما لا يسبب تركه نقصاً فى جلاء الحقيقة :

١ - فى أول مقدمات الثورة ترك على مبارك القاهرة إلى قريته ثم عاد بعد انكسار العربيين فى كفر الدوار، وقبل موقعة التل الكبير، فلما أمر عرابى بدعوة رؤساء الأمة وزعمائها إلى مؤتمر يقررون فيه موقف الثورة من توفيق، كان على مبارك من هؤلاء الزعماء الذين دعوا إلى هذا الاجتماع وشارك فيه واختار المؤتمر وفدا لمقابلة توفيق والتفاوض معه فى أمر هذه الفتنة التى أوقعها الإنجليز بدسائسهم بينه وبين العربيين، وسافر على مبارك مع هذا الوفد إلى توفيق فى الإسكندرية ويقول إنه بذل جهده للوصول إلى تقريب شقة النزاع وأن سعيه قد نجح عند توفيق.

ويعلق الأستاذ الشرقاوى على ذلك بأن هذا الرضا كان خداعا من توفيق، ثم يقول على مبارك: إنه اتصل أيضاً بالإنجليز ولكن مقت العربيين لتوفيق كان سببا فى فساد مسعاه إلى الصلح.

٢ - يقول عرابى فى مذكراته: إن على مبارك أرسل إليه برقية من الإسكندرية يقول فيها إنه تقرر تأليف لجنة مشتركة يكون هو أحد أعضائها ويضم إليهم ممثلون لرجال الثورة للوصول إلى نتيجة ترضى الجميع، وقد

رفض عرابى هذا العرض محتجاً بأن المجلس الذى عقد فى القاهرة أصدر قرارات لا يجوز الخروج عليها .

٣ - نجد ذكرا لعلى مبارك فى محاكمة عبدالله باشا فكرى بعد فشل الثورة إذ يقول فكرى : وفى ليلة حضر على باشا مبارك ورافقته من منزله إلى قصر النيل ، وألححت عليه أن ينصح لعرابى ، ويعرض للجناب الخديوى حل هذه المسألة بالسلم ، ومعنى هذا أن على مبارك كان صديقاً للثورة حتى ينصح زعيمها كما كان مقرباً لتوفيق أيضا .

٤ - يقول مستر بلنت وهو صديق عرابى الحميم : إن البارودى وعلى مبارك كانا يضعان العقبات والعراقيل فى طريق رياض باشا وهما عضوان فى وزارته ليعود شريف إلى رئاسته وبذلك يخدمان أغراض الثورة العرابية .

٥ - يقول بلنت : إن الغرض الذى رمى إليه رياض من إشراك على مبارك والبارودى فى وزارته هو كسب ثقة العرابيين واختيار صديقين من أصدقائهم .

٦ - كان على مبارك يميل ميل العرابيين ويناصر فكرتهم ، قبل أن يخرجوا على توفيق ، فلما ظهر أنهم لا يبالون سخط توفيق ، ورضاه وأنهم يسرون نحو الثورة

سار مع طبيعته وسجية نفسه من الاعتدال ، ولم يبادرهم بالخصومة والمعارضة ، لذلك اختاروه رئيساً لوفد السفارة عند توفيق ، وتحدث إليه عبدالله فكرى أن ينصح العربيين ويتوسط بينهم وبين توفيق ، فلما فشل مسعاه وبان له أن الثورة واقعة لا بد منها ، تولى عن مناصرة الثورة فى عنفها .

وخلاصة ما يمكن تحصيله من هذه الأقوال وما نظمئن إليه ، هو ما أكدده الأستاذ الشرقاوى بأن على مبارك كان رجلاً معتدلاً وسطاً لا ينجح إلى العنف ولا يقره ولا ينصح به ، وكان يرى أن خدمة الوطن تكون بالعمل الهادئ المطمئن ، وعلى ضوء هذه الطبيعة نستطيع أن نحدد موقفه من الثورة العربية تحديداً لا يظلم الثورة ، ولا يتحيف حقائق التاريخ ، فهو واقعى ينظر إلى المسألة من جميع أطرافها .

والذين قالوا إنه خان الثورة ، وأنه ضالع مع الإنجليز محاب للخدوى متسرعون لا يتدبرون ! وإذا كان المتصلون بالحاكم فى عهده من كبار الوزراء والمديرين من طبقة تترفع عن مخالطة الشعب ، ومزاولة الأعمال الصغيرة ، فإن على مبارك كان على النقيض من هؤلاء ، إذ كانت

المصلحة العامة ديدنه، لا يبالي في سبيلها أن يقوم وحده بأعمال دون مستواه، فقد دعاه أدهم باشا في عهد سعيد أن يختار مدرسين ليعلموا الضباط مبادئ القراءة والكتابة، لأنهم أميون، فقال له، قد اخترت . فقال من؟ قال : أنا فاستغرب أدهم باشا أن يكون علي مبارك في منصبه المرموق معلم أميين، وقال له : أنت أكبر شأنًا من هذا ! فقال له : كيف لا أنتهز فرصة أعلم فيها أبناء الوطن، وقد تعلمت الهجاء صغيرا، فوصلت به إلى ما وصلت !

وباشر مهمته بسرور وارتياح ! ولعل مغزى هذا الموقف يغنى عن كل وصف يبرز معدنه الأصيل، وقد فصل الأستاذ الشرقاوى حقيقة ما كان دون انحياز، فأظهر علي مبارك على حقيقته في حب السلام، ونبذ الخلاف .



حين نقرأ تاريخ زعماء مصر الثلاثة: أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول، نجد أن الزعيم أحمد عرابي كان سيئ الحظ كثيرا لدى من تصدوا لكتابة تاريخه بعد رحيله، لأن مصطفى كامل كان صاحب حزب سياسي له أنصاره وصحفه وكتابه، فحفظوا له مقامه الأسمى في سجل المكافحين، وأقاموا حفلات الذكرى كل عام مرددة آثاره الخالدة، وكذلك كان سعد زغلول زعيم أكبر حزب سياسي عرفته مصر، وقد ارتقت البلاد بانتشار الثقافة والتعليم في عصره وانحازت الجموع إلى تأييده، فصدرت الكتب المتتابعة مشيدة بجهاده الذي لا ينكر، وظلت حفلات الذكرى الموسمية تردد أمجاده الرائعة حتى أصبح اسمه رمز الحرية والكرامة والصمود عن حق لا عن افتعال، أما أحمد عرابي فمنذ خبا بريق الثورة وسبق إلى النفى، كانت سيطرة الاستعمار باعثة على تشويه كفاحه، وكان الوصوليون من أرباب الشهوات الدنيئة، يكتبون المقالات، ويؤلفون الأكاذيب انتقاصا لفضله.

وقام فريق من الشعراء بمهاجمته، حتى أن أحمد شوقي نظم ثلاث قصائد متتابعة في هجوه والسخرية منه، وهي زلة شائنة تؤخذ عليه، ولا تسل عن الأكاذيب المفتراة التي

ألصقت به إصاقا، فرمى بالجهالة والطيش والغرور والأثرة، واخترعت الحوادث الكاذبة لتأكيد هذه الافتراءات، وفسحت الجرائد اليومية صدرها لكل أفاق يرتزق بالهجو والسباب تزلفا للحاكم المحتل والحدوي المشجع وهكذا لم يجد الزعيم العظيم من يقول كلمة الحق عنه أو من يذكر ماله وما عليه، والأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعي على صدق وطنيته، ونزاهة حكمه، فقد صدق كثيراً مما أرجف به المرجفون فلم يحاول دحض هذه الأكاذيب الصارخة ولا أقول إنه كان سيئ القصد، بل أقول إن الأمور لم تتضح له في مرآة ساطعة الضياء، بل كان الضباب حائلا عن رؤية غائمة لكثير من الملامح، أما الأستاذ الكبير محمود الخفيف فهو الكاتب الجريء الغيور الذي أزال ضباب هذه الافتراءات، وجلا شخصية الزعيم الخالد جلاء كشف عن بطولته وزعامته وصدق مواقفه، وأذكر أن أخى الدكتور عبدالعزيز الدسوقي وهو طالب لم يزل يتلقى دراسته الثانوية، قد كتب أول مؤلفاته في تمجيد البطولة الرائعة التي اتصف بها الزعيم المضطهد، وحاول ما أستطاع في هذا العمر الغض، والصبا المشتعل، بجذوة الإخلاص ان يضع أحمد عرابي البطل موضعه الصحيح، وإذا تركنا ترهات شوقي ومن حدا وحذوه

من ذيول الأسرة الحاكمة فإننا نجد شاعرا عظيما بإخلاصه واستقامة خلقه، يصيح صيحته العالية في تمجيد أحمد عرابي غير عابئ بسلطة القصر، فيكتب كتاباً ممتازاً عن الثورة العرابية يمجّد فيه بطولة الأحرار من الزعماء بالمنطق الحر، والدفاع الجريء، ثم ينظم قصيدة رنانة في معركة التل الكبير تكون كعصا موسى إذ تلقف كل ما نظم المغرضون من أباطيل، وتقع في ستين بيتاً من رائع الشعر، وصادق البيان، ولا يستطيع أن أنقلها هنا بل أشير إلى مصدرها في ديوان الشاعر الوطني الغيور الأستاذ فخرى أبو السعود في صفحات ٧٧، ٧٨، ٧٩ وقد صدرها بمقدمة رائعة عن ذكريات المعركة الوطنية التي انتهت باحتلال البلاد غدرا وخيانة، قال فيها :

«وأقل ما في ذكريات الثورة العرابية، أنها كانت أول مظهر صحيح للقومية المصرية التي تنبّهت في العصر الحديث وأن معركة التل كانت أول معركة قام بها جيش مصري صميم، بالدفاع عن أرض مصر، وأن المصريين كانوا ينازلون فيها أكبر قوة استعمارية عرفها التاريخ، وأن الإنجليز لم يطمئئوا إلى منازل المصريين ولم يحرزوا عليهم النصر إلا بعد أن استعانوا بكل حيلة، ومما جاء في هذه القصيدة النادرة :

ولم أر يوم التل عارا وسببة
ولم أره إلا أغر ممجدا
أنجل أن قمنا نذود عن الحمى
ويسحب أذيال الفخار من اعتدى
تدفق من عبر المحيط مهددا
فما حفلت أبأؤنا من تهددا
وساق على الأحرار بالتل سفلة
أتى بهم من كل فج وأعبد
خميس يسير العار فى خطواته
ويتبعه الأوغاد فى حيثما اهتدى
كفته خيانات اللئام عدوه
وما بث من جند الفساد وأرصدا
سلام على من قد تصلوا بنارها
وخاضوا لظاها فائرا متوقدا
سلام على (قيل) تولى زمامها
أعف الورى قصدا وأنقاهموا يدا
جريرته أن رام مصر عزيزة
وشاء لها أن تستقل وتسعدا

ورام لها من طغمة الترك معتقاً

وبعدا لعهد الترك أشام أنكدا

ستذكره مصر الفتية ما ابتغت

لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا

وسنكشف عن بعض هذه الأراجيف التى سيقّت كذبا
ونفاقا لاتهام البطل العظيم، وأولها أن الرجل كان جاهلا لا
يعرف أخاليب السياسة، ولا شأن له بقيادة مصر، وهى تهمة
كاذبة لأن أحمد عرابى قد حفظ القرآن فى قريته، ثم التحق
بالأزهر الشريف أربع سنوات، وكان والده من أعيان الإقليم
فرأى رغبته فى الالتحاق بالجيش، فلم يمانع وظهرت كفاءته
من صغره، فرقى إلى رتبة ملازم ثان بعد سنتين ثم إلى رتبة
ملازم أول فى السنة نفسها، ولم يمر عام حتى وصل إلى رتبة
قائم مقام، وكان أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة، ودرس
القوانين العسكرية التى أهلتة إلى هذه الرتبة، وكان اختلاطه
برؤساء الجيش وهم من مرتزقة الأتراك والشراكسة دافعا
لغيرته الشديدة على أبناء وطنه إذ رأى فيهم التغطرس
والاستعلاء على المصريين ما أزعج خاطره، وصمم على
الدفاع عن حقوق الكثرة من العسكر فى الحرية والكرامة أمام
من ينظرون إليهم من الغرباء كأنهم خدم وأتباع وكان من

حظه أن اختاره سعيد باشا والى مصر ياورا له في زيارته للمدينة المنورة، وقد تقرب منه، ومنحه كتاب (تاريخ نابليون) ليقرأه فألهمه هذا الكتاب مبادئ عن الحرية السياسية، وحاجة البلاد إلى دستور تسير على هديه، وقد اعترف أن سعيد باشا كان يميل إلى المصريين ويعمل على ترقية جنوداً وشعباً، ثم جاء إسماعيل فانقلب الوضع وأسلم الزمام إلى الشراكسة والأتراك، وحين قامت بوادر الثورة العربية، وتولى قيادتها أحمد عرابي كانت خطبه وأحاديثه موضع إعجاب السامعين، وتناقلتها الصحف، وحفظها التلاميذ فهل كان هذا الذي رأس الصفوة من الثائرين وأسلمت له البلاد قيادتها وفيها العلماء وأرباب الأقلام وذوو الفكر الصحيح، هل كان هذا الزعيم جاهلاً لا يعرف أساليب السياسة، أما أنه كما قال الشاعر:

والناس من يلحق خيراً قائلون له

ما يشتهى ولام المخطئ الهبل

والأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعي على قسوته في الحكم على عرابي عند حديثه عن السبب في إخفاق الثورة العربية، فإن روح الإنصاف لم تفارقه في حديثه عن أسباب قيام الثورة قد قال: (ولا جدال في أن ظهور أحمد عرابي كان

فى مقدمة الأسباب ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهاراً على ولاية الأمور وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجرأة ذات أثر كبير فى ظهور الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ولو لم تكن هذه الشخصية التى اجتذبت إليها صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والإقدام لكان محتملاً ألا تظهر الثورة العرابية أو تظهر فى زمن آخر ، وفى ظروف أخرى غير التى ظهرت فيها) .

وليس من شأننا أن نتابع أدوار الثورة العرابية ، فإن الكتب الأخيرة التى ظهرت بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م قد وفّت المقام حقّه ، وكلها دون استثناء قد اعتمدت على الباحث المنصف الأستاذ محمود الخفيف صاحب الفضل الأول فى تجليته مرآة الثورة وإعطائها ما تستحق من التقدير ، ولكننا هنا نريد أن نرد على الذين جعلوا عرابياً السبب الأول فى إخفاق الثورة ، وعدوا من أكبر أخطائه عدم سد القناة استناداً للوعد الكاذب الذى أكده «دليسبس» إذ أرسل إلى عرابى تلغرافاً يقول فيه : «لا تعمل عملاً يعوق سير القناة ، فأنا هنا ، ولا تخش شيئاً من هذه الناحية إذ لا ينزل جندى إنجليزى واحد إلا ويصحبه جندى فرنسى وأنا المسئول

عن ذلك» .

يقول الأستاذ محمود الخفيف : «أما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابي في نعيمهم عليه أنه لم يفعل في الحال فذلك ما ينفيه الواقع، وذلك أن الإنجليز ما كادوا يفرغون من ضرب الإسكندرية حتى اتجهوا إلى حماية القناة، وكان على عرابي أن ينشئ خطوط كفر الدوار ليصد الإنجليز الذين دخلوا الاسكندرية فعلا فإذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الإسكندرية في اليوم الثاني عشر من يوليو، وأنهم سيطروا على مدخل القناة قبل نهاية هذا الشهر، واحتلوا السويس في ثاني يوم من الشهر التالي، وأن جانبا من أسطولهم كان يستطيع الانتقال فوراً إلى بورسعيد إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا مقدار ما كان يواجه عرابيا ورجاله من صعوبة إذا أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس، وليس معنى ذلك أنه كان يستحيل عليهم العمل، وإلا سقط عنهم اللوم وإنما الأمر كان صعبا» .

وأقول : لعل هذه العوائق هي التي جعلت عرابيا يتردد في ردم القناة ! ولنفرض جدلا إن رأيه في هذه المسألة كان غير صائب، فلكل قائد أخطأه التي لا يلام عليها لأنه بشر يخطئ ويصيب أما أن نجعل ذلك آية الجهل ودليل الرعونة

فهو الشطط البعيد .

وأما الظروف التي أدت الى الهزيمة ، فقد كانت أكبر من أن يدفعها عرابي وزملاؤه ، وقد احيطوا بتآمر شاذ على الثورة فى الداخل والخارج ، وأشد هذا التآمر ما كان من المنافقين الذين يظهرون المودة ويبطنون المكيدة ، فيلمنون بأسرار الجيش على أنهم منه وإليه ، ثم يذهبون بها إلى الأعداء يوما بيوم ، وهذا هو الإجرام بعينه ، وبمراجعة الملابس القوية التي أدت الى هذه العاقبة الوخيمة نجد فى مقدمتها :

- موقف الخديوى توفيق ، إذ كان فى أعماقه يؤمن بالديكتاتورية التي تجعله صاحب الأمر والنهى فى مصر دون مجلس شورى ، أو دستور قانونى يحدد سلطة الحاكم ، ومسئولية الوزارة أمام مجلس الشورى ، ثم هو لا يثق إلا فى خاصته من الأتراك والشراكسة ، ويعد المصريين رعايا ليس لها غير الخضوع والاستسلام ، وقد قال فى أول صدام له مع الثورة فى يوم عابدين ، بعد أن صاح بالجنود :

«أغمدوا سيوفكم» وعودوا إلى أماكنكم ،

فلم يفعلوا ، فاتجه إلى عرابي سائلا : ما أسباب حضورك

بالجيش هنا ؟ .

فقال عرابي : جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة ،
فقال : ما هذه الطلبات ؟ .

فرد عليه عرابي هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي ، وإبلاغ الجيش الى العدد المعين في الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها .

فقال توفيق : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

فرد عرابي : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فهو الله الذي لا إله إلا هو إنما لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم !

في هذا الحوار خلاصة ما يعتقد توفيق في نفسه ، وفي ما يجب أن يسير عليه حكمه ، وهو مع هذا الاعتداد بمركزه أمام عرابي كان في غاية التخاذل والخنوع أمام ممثلي الدول الأجنبية حريصا على تنفيذ رغباتهم مهما سلبت منه كل اختيار ، وقد استغلت إنجلترا وفرنسا ضعفه فأشارتا عليه بما

أشعل اللهيب ، ثم أعلن انحيازه النهائي للإنجليز فى معارك الإسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير بما يصمه بالخيانة دون تردد أو تبرير .

- أما الأمر الثانى من هذه الأسباب ، فموقف الدولة العثمانية التى إنحازت إلى الميثاق الاستعمارى الذى وضعته إنجلترا وفرنسا وسموه ميثاق النزاهة وقد خطب سفير إنجلترا فى المؤتمر قائلا : «إن الخديوى لا حول له ولا قوة ، وإن على الدول المجتمعة أن تأخذ الثورة المصرية بالشدة فتستأصل شأفتها لإعادة حكومة منظمة تطيع الحضرة السلطانية » وكلمة «الحضرة السلطانية» كانت طمأنة وهمية لتركيا حيث قامت إنجلترا بضرب الإسكندرية أثناء انعقاد المؤتمر ، ولم تبد الأستانة أى اعتراض ، ثم تمت الخيانة بإصدار الباب العالى منشورا يعلن خيانة عرابى ، وعده من الشائرين عصاة خارجين عن طاعة أولى الأمر فى الأستانة ومصر على السواء ، إن الدولة العثمانية التى استجابت لرغبات إنجلترا كانت تستجير من الرمضاء بالنار وقد جعلتها إنجلترا ألعوبة فى يدها تسيرها كما أرادت .

وفهم المصريون ذلك فاجتمعت الأمة أعيانها وعلمائها وذوو رأى فيها مستنكرين رأى السلطان فى الثورة وبمعنى

آخر، أنهم لا يعترفون له بأى سلطان ! لوقوفه فى صف الأعداء، لقد نشرت الدولة العثمانية إعلان عصيان عرابى والحرب قائمة، نشرته فى جريدة الجوائب التى كانت تصدر بالأستانة وقام سلطان باشا بتوزيع آلاف النسخ منه على الأهالى والأعيان ! فكان مصيبة أخرى !

وحديثنا عن سلطان باشا يجرنا إلى الكلام عن زملائه الخونة الذين كانوا أحذية فى أقدام الإنجليز، وكان هو فى مقدمتهم إذ ندبه الخديوى لمساعدة الجيش الإنجليزى الزاحف إلى كفر الدوار والتل الكبير، فبذل كل وسع يستطيعه لجذب صفار النفوس إلى الخديوى، وعلم أن مشايخ العرب إذ ذاك لا يفكرون إلا فى مصالحهم الخاصة، ولا يهتمهم استقلال مصر فكاتبهم ليكونوا جواسيس الإنجليز ووزع عليهم الرشاوى المالية التى حملها من القاهرة، وقد عرف - كما يقول الأستاذ الإمام - أن توزيع الرشوة باسم الإنجليز يضر ولا ينفع، فجعل يقول إنها مكافأة من السلطان التركى، ومساعدة من ولى نعم توفيق، ثم استطاع أن يجذب رئيس عرب الطحاوية إلى معسكره مع فريق من البدو النازلين بالفيوم، فجعلهم يحملون المنشورات السرية الداعية لتأييد الخديوى ومساعدة الإنجليز ويفرقونها على رؤساء القبائل لينضم العرب جميعاً

الى أعداء البلاد.

ويظهر أن الإنجليز لم يكونوا على ثقة تامة بالبدو، فاختاروا الجاسوس، «بالر» وهو مستشرق يجيد العربية والفارسية ليكون حامل الجنيحات الذهبية ويشرف على توزيعها لتكون أقرب وسيلة إلى استمالة الضعفاء وقد نجح هذا الوغد في مسعاه الدني وثبت أنه حجز لنفسه من هذه الأموال ما راق له، فكان خائناً للمصريين والإنجليز معا، ومن دهائه أنه كان يجتمع بالبدو، ويسمعهم الشعر العربي ويروى لهم سير الأبطال من بدو الجزيرة العربية ليفهمهم أنه منهم، وقد سمى نفسه «عبدالله» وكان ذا نشاط واسع لا يمل إذ أخذ ينتقل بين السويس والفيوم، وقد لبس الملابس البدوية، وادعى انه تاجر إبل وكان عرب سينا من أقوى مصدقيه، ثم شموا رائحة المال في حقيبتة فهجموا عليه ليلاً وأغتالوه وقد لقي حتفه بعد أن أدى مهمة الجاسوسية في حقارة وابتزاز وأكد الصلة الوثيقة بين شيخين من شيوخ البدو هما مسعود الطحاوي ومحمد البقلي فجمعوا رعاهم ليكونوا هداة للجيش الإنجليزي في زحفه الأثيم، ولولاهم لتعرقل سيره أمدا غير قصير.

أما ياور الخديوى عثمان رفعت فقد أخذ يتصل بالضباط

الشراكسة الذين أبعدهم عرابي عن الجيش فأغراهم بالانضمام إلى جيش الاحتلال واعداء إياهم بالعودة إلى قديم نفوذهم وسرعان ما استجابوا إليه وأصبحوا مطايا حقيرة تحت أقدام المحتلين، وإذن فلم تكن قوة الإنجليز وحدها سبب الهزيمة، بل أضيفت إليها قوى الخيانة والرشوة والتزييف، واستغلال منشور السلطان التركي المجاهر بعصيان العرابيين، وخروجهم على الحاكم الشرعي للبلاد!

إن هزيمة عرابي مع هذه الظروف السيئة لم تكن عاراً بالنسبة له، فقد هزم أبطال الدفاع كثيراً في مواقع شتى بالشرق والغرب، ونازيون نفسه الذي ضيع جند فرنسا في تحقيق رغباته في الإمبراطورية الواسعة، لم يعير بالهزيمة بل عد بطلاً، وما زالت الكتب في الشرق والغرب تسجل أمجاده الأولى، وهزائمه الأخيرة، دون أن تتهمه بالجهل والشعوذة والفرار، كما ادعى ذلك الآكلون من كل مائدة متى أبيح الطعام!

لقد كان عرابي زعيماً مخلصاً، وحسبه أنه الزعيم الأول الذي واجه القوة العاشمة في شمم وإباء، وأنه الفجر الصادق الذي تلاه الصبح البين.

المهتدين



- دعبل الخزاعي
شاعر ثائر ذو رأي ٣
- الإفشين
بطل باسل مضطهد ٢٧
- أبو المسك كافور
يهجوه المتنبي دون ذنب ٣٩
- يعقوب بن كلس
أول من نظم دروس الأزهر ٥١
- أبو العلاء.. ومعارضة القرآن ٦٥
- مصرع شاعر بطل ٧٩
- من صفحات التاريخ
إنصاف السهروردي الشهيد ٩١
- إنصاف بطل باسل
محمد كريم ١٠٥
- أحمد خان
مصلح كبير مفترى عليه ١٢٣
- علي مبارك
دوره الإصلاحى وموقفه من الثورة العربية ١٣٧
- أحمد عرابي
رأس يهاجمه الأذنان ١٥٣